العدد الأول

السنة الأولى

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٠٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

الاشتراكات

١٢٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
وللطلاب	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

غرة المحرم سنة ١٣٧٢ — (الطبعة الثانية) — سبتمبر سنة ١٩٥٢

جاء في مقدمة الشهاب :



افتتاح

الحمد لله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلى أنبياء الله ورسله ، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين . وسلم تسليما كثيراً .

ربَّنا آتنا من لدُنك رحمة وهيىء لنا من أمرِنا رشدا « سورة الكهف الآية ١٠ »

ربنا لا تزغ قلوبَنا بعدَ إذ هديْتنا ، وهَبْ لنا من لدُنك رحمةً إنكَ أنتَ الوهابُ . « سورة آل عمران الآية ٨ »

ربنا لا تؤاخذْنا إنْ نسِينا أو أخطأنا .

ربنا ولا تحملْ علينا إصراً كما حملتَه على الذين من قبْلنا .

ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفرْ لنا وارْحمنا ، أنتَ مولانا فانصرْنا على القومِ الكافرين « سورة البقرة الآية ٢٨٦ »

***

اللهم إنا نستعينكَ ونستهديكَ ونستغفرُكَ ونتوبُ إليك ونؤمنُ بكَ ونتوكلُ عليكَ ونثنى عليكَ الخيرَ كله ، نشكرُك ولا نكفرُك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبدُ ولك نصلى ونسجدُ ، وإليك نسعى ونحفدُ ، نرجو رحمتَك ونخشى عذابَك إنّ عذابك الجد بالكفار ملحق .

العدد الأول

السنة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي

سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

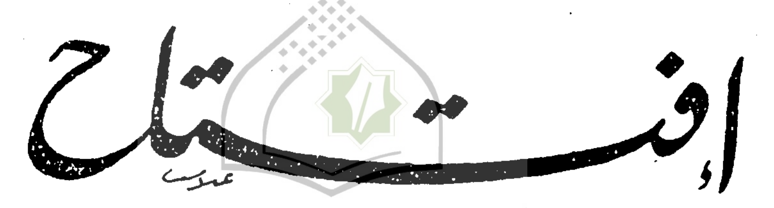
الاشتراكات

١٠٠ ص	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
وللطلاب	
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

غرة المحرم سنة ١٣٧٢ — (الطبعة الثانية) — سبتمبر سنة ١٩٥٢

جاء في مقدمة الشهاب :



الحمد لله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وعلى أنبياء الله ورسله ، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين . وسلم تسليما كثيراً .

ربَّنا آتنا من لدُنك رَحمة وهيءْ لنا من أمرِنا رشدا « سورة الـكهف الآية ١٠ »

ربنا لا تزغ قلوبَـنا بعدَ إذ هدَيتنا ، وَهبْ لنا من لدُنك رحمةً إنكَ أنتَ الوهابُ . « سورة آل عمران الآية ٨ »

ربنا لا تؤاخذْنا إنْ نسِينا أو أخطأنا .

ربنا ولا تحملْ علينا إصراً كما حملتَـه على الذين من قبـْلنا .

ربنا ولاَ تحمِّلنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفرْ لنا وارْحمنا ، أنتَ مولانا فانصرْنا على القومِ الـكافرين « سورة البقرة الآية ٢٨٦ »

***

اللهم إنا نستعينكَ ونستهديكَ ونستغفرُكَ ونتوبُ إليك ونؤمنُ بكَ ونتوكلُ عليكَ ونثنى عليكَ الخيرَ كله ، نشكرُك ولا نكفرُك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبدُ ولك نصلى ونسجدُ ، وإليك نسعى ونحفدُ ، نرجو رحمتَـك ونخشى عذابَـك إنَّ عذابك الجد بالـكفار ملحق .

« من قنوت عمر رضى الله عنه فما أخرجه محمد بن نصر والبيهقى وقال هذا صحيح موصول . وقد ورد فى سنن البيهقى فى باب القنوت من حديث خالد بن أبى عمران أن جبريل عليه السلام علمه النبى صلى الله عليه وسلم ليقنت به حين كان يدعو على مضر. وهو مرسل لأن خالداً لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ».

* * *

وبعد فهذه مجلة « الشهاب » نقدمها إلى القراء الكرام : إنسانية الاتجاه ، إسلامية المنهج . نرجو أن تكون قبساً يضىء للمتصلين به طرائق الحياة . مستمداً نوره وسناه من هدى القرآن الكريم ، وشريعة الإسلام العظيم .

الإسلام كنظام اجتماعى :

ولقد جاء الإسلام الحنيف نظاما اجتماعياً كاملا — لا مجرد دين لاهوتى — يقوم على مخاطبة الفطرة الإنسانية واستثارة ما فيها من قوى روحية تتمثل عقائد ثابتة ، وخلائق فاضلة ، وأفكاراً عالية ، وأعمالا نافعة ، وتنظم ملكات الفرد ، وحياة الأسرة وطبقات الأمة ، وواجبات الدولة ، وعوامل الاتصال والأخوة بين العالمين .

ثم هو يرد ذلك كله إلى قواعد اجتماعية حكيمة دقيقة ، تمتزج فيها المثالية السامية بالواقعية الملموسة التى تتصل بدنيا البشر وحياتهم اتصالا وثيقا ، حتى إنه ليحول كثيراً من هذه القواعد النظرية إلى أعمال يومية تتكرر كل صباح ومساء فى غاية من البساطة والسهولة واليسر « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » « سورة المائدة الآية ٦ »

أسلوب العرض :

وطريقة عرض هذه الأحكام الإسلامية على الناس تختلف ولاشك باختلاف الأزمان والبيئات والعقول والمدركات ، وبخاصة فيما يتصل بالشئون الاجتماعية والسياسات المدنية . ولقد اجتهد السلف الصالح — رضوان الله عليهم — فى الكشف والاستنباط والتدوين والكتابة والعرض بما يتفق مع أسلوب عصرهم ومعارف زمانهم ، وتركوا لنا ميراثا ضخما لا نظير له ، تتمثل فيه عقليات العصور المختلفة ، والمدارس الفكرية المختلفة والأزمان المتفاوتة التى عاشت مع هذا الإسلام وعاش معها هذا الإسلام ، وارتبطت به وارتبط بها فى كل شئون الحياة .

وورثنا نحن أبناء هذا العصر الأخير هـذا الميراث فلم نفكر فى الاستفادة منه

أو الانتفاع به ، أو الكشف عن درره وجواهره ، ولم نفكر فى الأسلوب الذى نعرضها به على أنفسنا وعلى غيرنا عرضا صحيحا جذابا ، يدفع إلى العناية بها ، ويلفت الأنظار والنفوس إليها ، ويضاعف إفادتنا منها .

ولا شك أن ذلك كان أثراً من آثار انصرافنا عن اعتبار الإسلام نظاما اجتماعيا للحياة بما وقر فى صدورنا من تقديس مظاهر الحياة الغربية واعتبارها المثل الأعلى فى مناهج الحياة ، وطغيان هذه الموجة من موجات التقليد الغربى التى غمرتنا فى التفكير والثقافة وفى التعليم والتربية وفى نظام الحكم وأساليب السياسة وفى التشريع والقانون وفى المنزل والشارع والمتجر والمصنع وفى كل أوضاعنا الحيوية والاجتماعية ؛ حتى أصبحت شريعة الإسلام العملية ونظامه الاجتماعى أموراً أثرية للنظر والعلم والتاريخ ، لا للعمل والتطبيق والتنفيذ . وهكذا ضاق فهم الكثير من أبناء الإسلام للاسلام حتى جعلوه قاصراً على هذه الموروثات من العقائد والآداب العامة والمعتادات من ضروب العبادات ، وحتى هذه البقية لم تسلم من الخرافة فى الأولى ، ومن الابتداع فى الثانية .

إهمال وجمود :

ومع تغير أوضاع الحياة باستمرار ، ومع أن الزمن يدور دورته دائماً ولا ينتظر المتخلفين ، ومع أنه قد تجددت فى المجتمع الإسلامى بحكم التطور الدائم والتغير الدائب أوضاع وصنوف من التعامل والصلات لم تكن من قبل وقف أمامها المؤمنون بالإسلام حائرين لا يدرون ما حكمه فيها وما نسبتها إليه ؛ فأعمال البورصة والبنوك المختلفة والتأمين على الحياة ، والأسهم والسندات فى الشركات وعمليات القطع وصور المبايعات الجديدة ، والنظم السياسية الناشئة التى تقوم على الحزبية أو سلطة الحاكم أو حق الأمة ، وحقوق الفقراء فى مال الأغنياء ، ونسبة طبقات المجتمع بعضها من بعض ، كل هذه أمور صارت تشغل أذهان الجماهير والشعوب فى هذا العصر ، وتتصل بواقع حياتهم ، وتشكلها الحياة بمقتضيات الظروف والضرورات كيفما اتفق . كل ذلك والعلماء المختصون بالتحقيق والتمحيص يرون وينظرون ويسمعون ولا يفعلون شيئاً : إما لأن الكثير منهم يرى أنه لا فائدة فى الاهتمام بمسائل نظرية تجرى العمليات فيها على نمط غير إسلامى فلا فائدة من إظهار رأى الإسلام فيها ، وهو خطأ ولاشك ؛ فمهمة العالم البيان ومحاولة حمل أهل التنفيذ عليه ؛ فإن عجز فقد أدى واجبه وأعذر إلى الله ، وإما لأنهم يرون بعد الشقة ، وضخامة المجهود الذى يجب أن يبذل فى البحث والمقارنة مع عدم تهيؤ وسائل التعاون وانصراف الحكومات والهيئات العلمية المختصة عن التفكير فى ذلك واشتغالها

عنه بمشاكلها الإدارية والخاصة ، وهو تقصير لابد أن يتدارك مهما كلفنا من ثمن . وهكذا نرى أن أحكام الإسلام قد أهملت ، وعواطف المؤمنين كادت تخمد بين حيرة وتقصير كان عنهما الجمود والحرمان .

ومنذ سنوات قدّم فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عقب انضمامه إلى هيئة كبار العلماء المصرية اقتراحا إلى هذه الهيئة يطلب إليها توجيه جهودها إلى هذه الناحية ، وتناولت الصحف السيارة هذا الاقتراح بالتشجيع ، ولكن نتيجة عملية لم تظهر إلى الآن . ونرجو أن تظهر فى القريب إن شاء الله .

موجة جديدة

وقد أنتجت الحوادث العالمية وأهمها الحرب الماضية العالمية الثانية انقلابا سياسيا وفكريا واجتماعيا خطيرا ؛ إذ تحطمت مظاهر الأفكار القديمة ، والأوضاع السابقة كلها ، ووقف العالم على مفترق طريقين : طريق الأفكار الشيوعية التى تتزعمها وتدعو إليها روسيا السوفيتية ، وطريق الأفكار الديمقراطية التى تدعو إليها وتتزعمها أمريكا وانجلترا . وكلا التيارين مسلح بالمظاهر المادية ، والنظريات الجدلية ، واستثارة المطامع والشهوات الإنسانية ، وقد امتد أثر هذه الموجة الجديدة إلينا ، بل إنها لتغمر مجتمعنا الإسلامى فى كل مكان : فى بوادى الحجاز وصحارى اليمن ومجاهل أفريقيا وهضاب آسيا وسهول مصر ، وبين البدو والحضر وفى القرى والمدن وفى كل مكان صرنا نسمع كلمات الشيوعية والديمقراطية والنازية والفاشية وملحقاتها وما يشتق منها ويتصل بها . ويحاول المبشرون بهذه الأفكار أن يركزوها على قواعد من المنطق والفكر ، وأن يلبسوها ثوب العقائد الثابتة ، ويصلوها بالمشاعر والوجدانات الأصيلة فى الإنسان ، ويزينوا للأمم والشعوب فوائد الأخذ عنها ، ويدفعوهم دفعاً إلى الإيمان بها والارتماء فى أحضانها ؛ مع أن الإسلام الحنيف قد كفى الله به وأغنى من حيث الأفكار أو المشاعر أو الأوضاع العملية .

هذه الموجة الجديدة الطاغية تجتاح أرضنا فى قوة واندفاع ، ونحن فى حالة تذبذب بين الاتجاهين ، ولابد من الاستقرار ؛ فدوام هذا التردد من المحال ، والاستقرار على قواعد أحد المذهبين من أخطر الخطر على كيان الأمم العربية والإسلامية والشرق كله ! فليست هذه المبادىء إلا فورات وقتية لأعراض فساد اجتماعى مكبوتة فى بيئة من البيئات ، ثم تطورت إلى أستار حريرية تخفى وراءها مطامع الغاصبين وأحلام المتسيطرين . ولا نجاة للعرب ولا للمسلمين ولا عزة للشرق إلا أن يتخلص منها جميعاً

ويستمد من نفسه ويعتمد على نعمة الله التى أنعم بها عليه ؛ فهو مهد النبوات ، ومهبط الوحى ، ومشرق الرسالات ، ووارث كتب السماء وهدايتها إلى الأرض ، وقد تبلورت هذه المعانى العليا جميعاً فى كتاب الإسلام الحنيف وهدى رسوله العظيم سيدنا « محمد » النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . وكل هذه الأحداث تجرى فى قوة وسرعة ، والرجال المختصون بالبحوث الإسلامية لايقدرون الأمر قدره ، ولا يهتمون بما يحدثه هذا التطور الجديد فى الكيان الإسلامى نظرياً وعملياً من عميق الآثار .

مع أنها فى الحقيقة فرصة سانحة لايمكن أن تعوض ليعرض فيها الإسلام كنظام اجتماعى كامل شامل يفضل كل ماعداه ولا يفضله نظام سواه ، والحجة واضحة والبرهان قائم ، ولله الحجة البالغه «والله غالِبٌ على أمرِه ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمون » .

القضية الأولى :

وعلى هذا فستكون القضية الأولى فى رسالة «الشهاب» علاج هذه الناحية علاجا دقيقاً ، ومحاولة تقديم رسالة الإسلام الحنيف على أنه « نظام اجتماعى لامجرد دين لاهوتى» ، والمقارنة بينه وبين قواعد النظم الاجتماعية الأخرى التى خلبت ألباب الناس وملكت عليهم مشاعرهم واستهوت أنظارهم وأفئدتهم ؛ فيرى المنصفون بالدليل المنطقى والتحليل العلمى ، والبحث المجرد أنه قد جمع محاسنها كلها وتنزه عن مثالبها ومساويها ، وأنه أولاها جميعا بالتطبيق والتنفيذ ، وأن هذا هو الأساس الوحيد لإنشاء العالم الجديد الذى يقوم على الحق والفضيلة والأخوة والتعاون والسلام ؛ فيسعد فى الدنيا ويفوز فى الآخرة . ولله عاقبة الأمور .

القضية الثانية :

على أن الإسلام نفسه لم يسلم عند المسلمين من أن يلصق به ماليس منه ، وينسب إليه ماينكره أشد الإنكار ! وهو بطبيعته التى أظهره الله بها سهل بسيط ميسور لاحرج فيه ولا غموض ، وإنما عقدته آراء الناس ولونته أفكارهم فى مختلف العصور والأزمان . ولقدكان الرجل من البادية يجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع دقائق أو ساعة من نهار فيقوم مسلماً أفضل مايكون المؤمنون إيمانا ؛ لصفاء فطرته ، وسلامة نفسه ، وسهولة الإسلام وبساطته ويسره . وكان الإسلام حينذاك حياة قلبية تنصب فى النفوس ، ونوراً ربانيا يشرق على الأفئدة ، وأعمالا مخلصة يقصد بها

وجه الله ، وتجرداً للحق وفناء فى سبيله تعلو به دعوة الخير وتسود ، فتحوّل ذلك كله إلى نظريات فى الكتب ، وألفاظ على الشفاه ، وأعمال بحكم العادة ، وتجارة باسم الحق للحصول على مغانم الدنيا . ومحال أن تنهض على هذه القواعد دعوة أو تحيا أمة أو تقوم دولة ! .

وعلى هذا فستكون « القضية الثانية » محاولة عرض أحكام الإسلام الحنيف على المسلمين أنفسهم عرضا فطريا بسيطاً على النحو الذى عرفها عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان ، قبل تبلبل الأفكار ، وتفكك الوحدة ، وغلبة الدنيا ، واستبداد الأهواء بالجماعات والأفراد على السواء .

وإن شئت قلت: إن هذه هى القضية الأولى والسابقة تليها وتلحق بها ؛ فهذه تأسيس وتلك تحصين وأنت بهذا لم تعد الصواب .

القضية الثالثة :

والدين منذ عرفته البشرية على هذه الأرض ، وجاء به أنبياء الله ورسله : نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم يقوم أول مايقوم على الاعتقاد والإيمان (بالله) الخالق المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ، وعلى مايتبع هذا الاعتقاد من إيمان بأفعال الله ، ونسبة أفعال المخلوقين إليها ، وإيمان بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده ، والكتب السماوية التى أنزلها عليهم تتضمن شرائع دينه . وعن هذه العقائد التى تتصل بحقائق الدين العليا انبعثت أرقى الحضارات ، وأخلد المدنيات ، وأسمى الأخلاق ، وأفضل الأعمال .

والماديون ينكرون على الدين هذه العقيدة ويجادلون فيها أشد الجدال ، ويصفون بالخرافة والضعف هذه العقلية « الغيبية » التى تؤمن بإله لا نراه ، ويريدون أن يقرروا فى الأذهان والنفوس أنه لاشىء هناك إلا هذه المادة الصماء وما يتصل بها من قوى ، وما يعرض لها من تفاعلات ، وأنه لا رقى ولا تقدم إلا فى ظل هذه العقلية « العلمية » البعيدة عن أوهام الدين وخرافات المتدينين .

القضية الرابعة :

ومسألة أخرى لاتقل فى الأهمية عن سابقتها وهى تتممها وتلحق بها تلك هى : « حقيقة الإنسان وماذا وراء هذا الوجود المادى » فهل الإنسان هو هذا الهيكل المادى بلحمه ودمه وعظمه وعصبه وما تنتج هذه الأخلاط والأجهزة من تطورات فزيولوجية ؟

وهل تقف حدود الكون عند الوجود المادى بأرضه وسمائه ومائه وهوائه وجماده وحيوانه وإنسانه ، وليس وراء ذلك إلا ما هو من جنسه من نتاج المادة وآثارها ؟ يقول الماديون : نعم لا شيء إلا هذا ! ويقول الدين والإيمان : لا . إن لهذا الإنسان « حقيقته الروحية ولطيفته الربانية التى أودعها الله فيه » والتى تحمل هذا الهيكل وهو لها كالغلاف ، وعنها يكون الوجدان والإرادة والإدراك ، وهى العقل أحيانا والنفس أحيانا والروح أحيانا أخرى ، وهى سر الإنسانية ، ومناط التكليف والجزاء فى الدنيا والآخرة ، وإن وراء هذا الوجود وجوداً آخر لا يقوم على جنس هذه المادة ، بل له كيانه الروحى الذى تعرف آثاره ، وتدق حقيقته عن الإدراك وهو ينتظم ما يطلق عليه فى عرف الشرعيين « عالم السمعيات » . ويكاد يكون تاريخ الفلسفة الإنسانية هو تاريخ النزاع بين الملحدين والمؤمنين فى هاتين القضيتين : قضية الألوهية ومايلحق بها ، وقضية الروح وما يتبعها . وهذا النزاع يتجدد دائماً كلما ساعدت الظروف الاجتماعية أحد طرفيه على القوة والظهور .

ولقد لازمت المدنية الغربية الحديثة ، والحياة الغربية العصرية التى تعتمد على الكشف والاختراع والعلم التجريبى الذى أنتج الآلات الهائلة ، وكوّن الثروات الضخمة وأمدهم بكل مظاهر القوة ، واصطدم بكثير من تعاليم الكنيسة المتوارثة عندهم فكرة الإلحاد والتملص من تبعات الإيمان الدينى حيناً من الدهر ، حتى استردت البحوث النفسانية والروحية بعض قوتها فى ذلك المحيط خلال السنوات الأخيرة . ولكن الحرب الثانيه ما كادت تنتهى حتى أخذ هذا النزاع يتجدد فى ثوب من المبادىء والتعاليم الاقتصادية المحببة إلى النفوس المغرية بالآمال .

ولقد تأثرنا نحن فى مصر وفى سائر البلاد العربية والإسلامية بهذه النعرات الفكرية والاجتماعية والنفسانية العنيفة بحكم اتصالنا بأمم الغرب وشعوبه ، وكانت أعراض هذا التأثر تبدو فى كثير من الأحيان فى صور شتى من ألوان الإنتاج الفكرى ، ورغبات الإصلاح الاجتماعى . ولا بد لنا من علاج هذه القضايا فى كثير من الجرأة والوضوح علاجا علمياً ينفى عنها زيف المبطلين ، ومغالطة الجاهلين المتعصبين . وقديما كان التعصب وصفاً يكاد يكون ملازما لجماعة المتدينين ، فصار اليوم ألصق ما يكون بهؤلاء الماديين الذين جمدوا على آرائهم الباطلة وإن خالفت الدليل الواضح والبرهان القاطع ! والهداية من الله « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء »

ومع أن هاتين القضيتين من صميم البحوث الإسلامية إلا أننا سنعنى بعلاجهما والتعرض لهما عناية خاصة فى بحوث هذه المجلة لأهميتهما وحاجة المجتمع — وبخاصة بين المثقفين — إلى الاستقرار النفسانى والعقلى فيهما .

وأظن أنك قد عرفت من هذا الكلام أن القضيتين الثالثة والرابعة هما قضيتا الألوهية وما وراء المادة .

رسالة الشهاب :

وعلى هذا فسيكون أول ما تعنى به « الشهاب » علاج هذه القضايا .

١ — محاولة عرض الأحكام الإسلامية عرضاً مبسطا عمليا شاملا يوافق أسلوب العصر

٢ — ومحاولة تقديم الإسلام كنظام اجتماعى كامل لا مجرد دين نظرى لاهوتى .

٣ — والدفاع عن أحقية عقيدة « الإيمان بالله » .

٤ — والانتصار « للروح الإنسانى » .

وستقدم هذه الحقائق للقراء الكرام فى ثوب من نصوص الدين وبحوثه أحيانا ، ومن التاريخ ، أو الأدب ، أو القصص ، أو العلم والفن ، أو تمحيص المواقف والشبهات أحياناً أخرى ، مع التعرض لعلاج بعض مظاهر النقص فى المجتمع ، وبيان طرائق العلاج ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ومع عرض الموقف العام للعالم الإسلامى فى كل شهر ، وتسجيل أهم الحوادث فيه ، وأظهر الأخبار المتعلقة به . والله المستعان .

المنار والشهاب :

ولقد سبقت مجلة « المنار » التى كان يصدرها الأستاذ الكبير « السيد محمد رشيد رضا » — رحمه الله — فى هذا المضمار سبقاً بعيداً ، وأسست مدرسة فكرية إسلامية على قواعد هذا الإصلاح الإسلامى الجليل لا زالت آثارها باقية فى نفوس النخبة المستنيرة من رجال الإسلام إلى الآن ، ونافحت عن حقائق هذا الدين ومقاصده أقوى دفاع ، ووقفت للملحدين والإباحيين والجامدين بالمرصاد ؛ مما جعل لها أجمل الأثر فى خدمة الإسلام لهذا العصر فى مصر وغيرها من الأقطار .

كما قامت مجلة « الشهاب » الجزائرية التى كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس — رحمه الله — فى الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد ، مستمدة من هدى القرآن الكريم وسنة النبى العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنا لنرجو أن تقفو « الشهاب » المصرية الناشئة أثرهما ، وتجدد شبابهما ، وتعيد فى الناس سيرتهما فى خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام ، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء . والله المسئول أن يحقق الآمال ، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشداً . آمين .

حسن البنا

والمسلمون :

و « المسلمون » ليست إلا قبسا من أقباس هذا « الشهاب » تقفو أثره وتعيد فى الناس سيرته فى خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام ، ومُصدرها ليس إلا تلميذاً من تلامذة « حسن البنا » الكثيرين ، وقد نعم رضى الله عنه وأرضاه بالشهادة بعد أن أدى الرسالة وأرسى الأساس ورسم قواعد البناء ، وترك ذلك كله وديعة مباركة فى يد الله الذى أكرمه فجعله الداعى إليه على بصيرة ، وبارك سعيه فجعله مشرق النور والأمل فى العالم الإسلامى جميعه ، ثم اختار له حين حضره الأجل المحتوم — وأجل الله إذا جاء لا يؤخر — أكرم موتة فى سبيل الحق ، فمضى إلى ربه شهيداً عزيزاً ، يشهد له دمه الحر الزكى المراق فى سبيل الله ؛ وتركه كذلك فى حراسة جيل جديد صالح درج فى حجره واتسم بسمته ، وعاهده عهد الصدق أن يعيش للاسلام « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » « سورة الأحزاب الآية ٢٣ »

هذه التسمية :

ولست أدرى كيف جاء هذا الاسم : « المسلمون » إلا أنى وجدته فى نفسى وانشرح له صدرى وأنست إلى تسمية المجلة به فهو وصف هذه الأمة القديم « ... ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » وهو عَلَمَ أهل الحق فى حجر كل نبى ورسول « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون »

« سورة البقرة الآية ١٣٠ — ١٣٣ »

وقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذه الآية :

« خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحدانية فى العبادة وإسلام القلب لله تعالى والإخلاص له . وتكرار لفظ (الإسلام) فى هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين ؛ ذلك أن العرب كانت تدعى أن لها ديناً خاصاً بها وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب ، ومنهم من كان ينتمى إلى إبراهيم على وثنيتهم ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعى ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للتقاليد وأن دين الله تعالى واحد فى حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والإذعان لهداية الأنبياء ، وبهذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فتبين أن دين الله تعالى واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى ، ولذلك قال فى آية أخرى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فالتفرق فى الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للأهواء ، والمحافظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء ؛ فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق فى الدين والاجتماع على أصليه : العقلى وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبى وهو الإسلام والإخلاص لله فى جميع الأعمال .

وعلم من هذا أن لفظ الإسلام والمسلمين فى كلام إبراهيم وإسماعيل ويعقوب يراد به معناه الذى تقدم ؛ فمن لم يكن متحققا بهذا المعنى فليس بمسلم : أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع أنبياء الله . وأما لفظ الإسلام فى عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى ، ولا يشترط فى إطلاق هذا اللقب العرفى عند أهله أن يكون المسلم خاضعاً مستسلماً لدين الله مخلصاً له أعماله ، بل يطلقونه أيضاً على من ابتدع فيه ما ليس منه أو ما ينافيه ، ومن فسق عنه واتخذ إلهه هواه . ومعنى الإسلام الذى دعا إليه القرآن تقوم به الحجة على المشركين ، ويعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين ، وهو الذى دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، والدعوة إلى اللقب لا معنى لها » .

فالإسلام لله هو غاية الرسل والرسالات جميعاً :

« وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين » « سورة النمل الآية ٩١ »

« وأمرت لأن أكون أول المسلمين » « سورة الزمر الآية ١٢ »

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » « سورة الجن الآية ١٤ »

وهو دعوتهم فى الناس :

« قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون »

« سورة الأنبياء الآية ١٠٨ »

« فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » « سورة الحج الآية ٣٤ »

« ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » « سورة النمل ٣١ »

نسب الحوى :

إذا أسلم المسلمون هذا الإسلام ، وفنيت إراداتهم فى إرادة الله واستعلن فى حياتهم كلها أمر واحد هو أمر الله ، واستبانت لهم الحياة كلها محرابا واسعاً يعبد الله فيه بكل حركة وسكنة ، وأشرقت آياته فى أنفسهم نوراً ينسكب من السماء ، وأوامر فيها جلال الوحى وروعة شأن الله ، فإنهم يصبحون بذلك الأمة الأمينة على الحق فى الأرض : نسبها فيما بينها مقاييس الحق ، والشهيدة على الناس بالقسط : يشهد فهمها وإيمانها وأخلاقها أن رسل الله قد أبلغوا ما أرسلوا به ، وأن حجة الله قد استعلنت على الناس فى لحم ودم وثوب مما يلبسون : فى مجموعة منهم أسلم ظاهرها وباطنها ، واتحد على كلمة الله أبيضها وأسودها ، واندفعت على أعينهم صورة حية لدعوتها ، وتفسيراً عملياً لفكرتها ، ولم يبق بعد إلا أن يأخذ الناس الأسوة مما يرون ويسمعون ، ويجيبوا داعى الله « آمنوا كما آمن الناس » .

هذه رسالة المسلمين فى أرض الله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » وهم حين أخذوا دينهم بقوة وعملوا به كله ولم تفتنهم عنه الأهواء ، انتشربهم نور الله ، ووسعت الناس رحمته ، ووضع عنهم الإسلام إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . ولكنهم حادوا بعد ذلك عن صراط الله واتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيله وذهب أمرهم فرطا وماظلمهم الله . ثم نظر غير المسلمين إليهم ليقرأوا فى أحوالهم خبر دينهم فلم يجدوا فيهم مصداق مايسمعونه من كلام ربهم وهكذا عق المسلمون نعمة الله وحرموا أنفسهم بركة الوحى ، وأصبحوا حجة على الإسلام وقد أمروا أن يكونوا حجته على الناس .

غاب المثال الذى يحتذى ، وفقد الحق أمته التى تجتمع عليه ، لايجمعها غيره ، فتحكم فى الناس الهوى ، وانقسموا إلى أمم وشعوب ، لكل منهم هوى يدور به ، وحدود من مصلحته يحدد بها الحق والباطل . و « أنا » التى يعبدها ويكدح من أجلها . . .

فاستحالت الحياة إلى غابة يأكل القوى فيها الضعيف ويطغى زئير السعار فى آجامها

على كلمة الحق « أرأيت من اتخذ إله هواه أفأنت تـكون عليه وكيلا » .

ولن يستقر فى الأرض سلام إلا إذا استبدل الناس بالأهواء التى مزقتهم هوى واحداً يجمعهم ... وعاطفة واحدة تدور بها أنفسهم ، وإلا إذا قامت مقام « أنا » الضيقة فى كل فرد وأمة .. أنا الواسعة على الناس جميعاً « ... أنا الله لا إله إلا أنا » .

ألا لاسلام إلا إذا أسلم الناس لله رب العالمين ، ولن يعتدل ميزان الحياة فى الأرض إلا إذا قام عليه المسلمون .

وبعد :

فنحن إذ نقدم اليوم مجلة « المسلمون » لتأخذ بإذن الله مكانها فى الركب الميمون من دعاة الحق ، لنستشعر فداحة التبعة وثقل المهمة وأخطار الطريق ، ولـكننا نستمد من الله العون والتأييد ، ونترسم الخطى المباركة المسددة للامام الشهيد ، ونجد فى نبل المقصد وكمال الغاية ما يهون الصعب ويزكى الهمة ويذهب وحشة الطريق « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

والله المسئول أن يحقق الآمال وأن يهىء لنا من أمرنا رشدا . آمين .

سعيد رمضان

قصص القرآن

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

ليس فى الناس من يجهل قصة آدم عليه السلام ، فقد خلقه الله من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة أن يسجدوا له ؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، فغضب الله عليه وطرده من رحمته ، وقال : يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة ، وحذرها أن يفتنهما الشيطان فيخرجهما من الجنة . . . ولكن الشيطان استطاع أن يستدرجهما إلى ما أراد من المعصية فأكلا من الشجرة . . . وما لبثا أن أدركهما الندم وأقبلا على الله يسألانه التوبة والمغفرة ، فقبل الله منهما ولكنه أخرجهما إلى الأرض حيث هبط الشيطان « قال اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » واستخلف الله آدم وبنيه فى الأرض ، وكانت الملائكة تستشرف إلى هذه المرتبة الرفيعة حين أخبرهم سبحانه أنه جاعل فى الأرض خليفة ، ولكن آدم وبنيه ذهبوا بشرف هذه الكرامة لما ميزهم الله به من المواهب والأسرار التى تؤهلهم لذلك .

***

ذلك هو ملخص قصة آدم عليه السلام على ما يقصها القرآن الكريم ، وقد سبقنا إليها علماء أفاضل ، كل عاملها بالأسلوب الذى يروقه وتناولها من زاوية النظر التى بدت له ؛ فالثعالبى له نهجه فى عرائسه ، وأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله نص فى كتابه على الطريقة التى اتبعها فى العرض ، وآخرون رأوا أن يسلكوا نهجا به يسر على ناشئتنا الذين لم يألفوا معاناة هذا الضرب من القصص .

وقد استخرت الله سبحانه أن أعرض لهذه القصة الكريمة من جانب آخر ؛ فهى قصة تكوين البشرية ومبدأ تقلبها فى الغواية والرشد ، ومهمتها الخطيرة التى اختيرت لها فى هذه الأرض .

***

ومعلوم بالضرورة أن الإنسان ليس مخلوقا أرضيا بحتا ولا روحيا بحتا ؛ بل هو مزاج من المادة والروح . . . وتبدأ القصة بتقرير هـذا الأصل إذ يقول سبحانه : « إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (١) » .

واختلط سر الروح بطبيعة التراب ، ونشا من تلاقيهما أو تفاعلهما فى هذا الكيان البشرى ضرب من الحياة : فيه سر السمو والنزوع إلى الله ، وفيه طبع الانجذاب إلى الأرض والركون إلى متعتها الحيوانية . . . أو قل نشأ من تلاقيهما فيه ، مجموعة من القوى الفطرية تتنازعه ، فتوحى إليه كل منها ما ترى أنه الخير له ، وهى القوى التى أفاض علماء النفس فى تحليلها وشرحها وسموها « غرائز » .

* * *

وفى القصة كثير من الإشارات إلى بدء نشاط هذه الغرائز وظهور آثارها فى عالم الواقع لأول مرة .

ففى قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » (٢) إشارة إلى غريزة حب البقاء التى عمد إليها الشيطان فجعل يستثيرها فى نفس آدم حتى زين له الأكل من الشجرة وأوقعه فى المعصية .

وفى قوله تعالى : « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووری عنهما من سوءاتهما (٣) » إشارة إلى تطور الغريزة الجنسية بظهور أعضاء التناسل . فقد كانت هذه السوءات مستورة عنهما بنص الآية الكريمة « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » . . . أين كانت هذه السوءات قبل الأكل ؟ وكيف بدت وظهرت بعده ؟ وما علاقة ثمر هذه الشجرة به ؟

وهناك إشارات إلى ما فى طبع الإنسان من ضعف ، وغفلة ، وفتور ، عن رعاية الحدود ، مما يعتبر مداخل للشيطان إلى القلب ، ومزالق تزل منها الأقدام إلى المعصية . وأخرى بإزائها تشير إلى أثر الروح الإلهى حين يشرق فى جوانب النفس عقب الخطيئة ؛ فلا يجد المرء لنفسه ملجأ من الله إلا إليه ، فيقبل عليه فى إنابة وخضوع : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٤) » .

---

(١) سورة ص الآية ٧١ — ٧٢ (٢) سورة طه الآية ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠ (٤) سورة الأعراف الآية ٢٣

فنحن إذن بإزاء قصة التكوين والنشور وظهور قوى الإنسان الغريزية لأول مرة فى مجال نشاطها الواقعى .

* * *

ولا بد لهذا الخلق الممتاز من رسالة ومهمة يؤديها فى هذه الأرض ؛ فما كان الله سبحانه ليخلق شيئاً عبثاً . . . وما كان جل شأنه ينفخ من روحه فى هذا الكائن إلا ليعده لأمر جليل يتكافأ مع شرف الروح الإلهى . . . ولقد أشار سبحانه إلى هذا الأمر وهو يعرض قصة آدم أو قصة تكوين هذه البشرية ونشوئها فقال جل ثناؤه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »(١) . فالخلافة هى الرسالة أو هى الأمر الجليل الذى رشح له الإنسان ، وهى خلافة عن الله سبحانه فى عمارة هذه الأرض عمارة روحية مادية .

والبشر لم يجهز لأداء هذه الرسالة بغرائزه الحيوانية فحسب ، ولا بأمداده الروحية فقط ؛ وإنما جهز بما ينظم ذلك كله ويلائم بين بعضه وبعض ، ويجعل منه قوة إنشائية مباركة تعمر الأرض على هدى وصراط مستقيم . تلك الموهبة هى « العلم والمعرفة » أو « الاستعداد الفطرى للعلم والمعرفة » .

بهذا كله كان الإنسان أصلح لخلافة الله فى هذه الأرض من الملائكة الذين لا يملكون ما يملك من المواهب . وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »(٢) .

تلك هى العناصر الكبيرة البارزة فى قصة أبى البشر عليه السلام :

١ ــ التكوين .
٢ ــ بدء ظهور الغرائز والقوى الحيوية فى مجالها الواقعى .
٣ ــ المهمة الخطيرة التى أسندت إلى البشر فى هذه الأرض .

والله سبحانه وتعالى إذ يقص علينا هذا القصص لا يريد مجرد الإخبار وإفادة التاريخ ، ولا يقصد أن يسوق للمنتفعين به دروساً فى التشريح الجثمانى والتحليل النفسانى ؛ إنما يلخص تاريخ هذه الحوادث أو حوادث هذا التاريخ ويستخلص منها رحيقا تحيا به

(١) سورة البقرة الآية ٣٠
(٢) سورة البقرة الآية ٣١ — ٣٢

القلوب وتستنير به البصائر ، هو رحيق الاعتبار وتنبيه النفوس من غفلتها وثبات الأفئدة على أمر الله « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فوادك(١) » . « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب(٢) ... »

وعلى نحو ما فهمت من هذا المنهج أحاول علاج هذه العناصر الكبيرة . والله أسأل أن يجنبنا زيغ العقيدة ومضلات الهوى واتباع ما تشابه من نصوص كتابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وأن يثبتنا على المحكم الواضح من آياته . إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو المستعان وبه التوفيق .

التكوين

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » هذه الآية الكريمة ، ويظاهرها كثير من الآيات صريحة فى أن الله تعالى خلق الإنسان من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه حتى صار بشراً سويا .

وقد رأى بعض الباحثين فى قصة آدم أن يناقشوا « نظرية داروين » التى تقول : إن الإنسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وليس أصله آدم كما تقول النصوص الدينية ، وردوا على ذلك بأن تلك النظرية لم تزل موضع البحث ولم تبلغ مرتبة العلم التعيينى بعد ، ولها مؤيدون ومعارضون ، بل إن من فلاسفتهم من يذهب إلى عكس تلك النظرية فيقول : إن القرد أصله إنسان انحدر إلى الهيئة التى هو عليها . . بل إن داروين نفسه يقرر أن هناك حلقة مفقودة بين القرد والإنسان .

ويقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار عليه رحمة الله : فإذا وصل أصحاب النظرية إلى الأدلة القاطعة التى تجعل هذه القضية بديهية تساوى فى بداهتها : السماء فوقنا والأرض تحتنا ، كان لزاما علينا أن نؤول القرآن ليوافق الواقع كما هى القاعدة القائلة : إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله .

وأرى أن ذلك لو حصل — وهو بعيد جداً — فإن مرونة آيات الكتاب الكريم — وأعنى بالمرونة سعة آفاقها — تغنينا عن التأويل الذى يتوقعه أستاذنا الكبير رحمه الله ، أو على الأقل سيكون التأويل قليلا جداً لا يبلغ الدرجة التى يتصورها القارىء من عبارة الأستاذ التى نقلناها .

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ (٢) سورة يوسف الآية ١١١

ومن رجع إلى الآيات التى تتحدث عن بدء خلق الإنسان يقتنع بما نقول . ونكتفى عن إيرادها كلها بإيراد قوله سبحانه : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [1] » ، فالمرونة التى ترى فى هذه الآية الكريمة وغيرها كفيلة بإقرار العقيدة التى أرساها الدين فى قلوبنا ولا خوف عليها مما يأتينا به هؤلاء .

على أن ذلك مبحث لا يعود علينا بشىء من النفع فى دنيانا ولا فى آخرتنا ؛ فالإنسان وجد نفسه هكذا على الأرض ، وصلاحه فيها لن يكون إلا بصلاح مايبذل فيها من جهد ، وهو فى آخرته لن يؤخذ بما كان من أصله أيا كان هذا الأصل إذ « لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » ورحم الله امرأ شغل نفسه بما يصلح معاشه ومعاده ؛ وهذا كلام ربنا سبحانه يقول فيه إنه خلق الإنسان من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه . . .

ومما ينفعنا فى معاشنا ومعادنا أن نعلم أن مزاجنا النفسانى محدود بحدود من طبيعة الطين والسر الذى نفخه الله سبحانه . . وقد ذكر الله سبحانه عن هذا الطين الذى صورنا منه أنه « صلصال من حمأ مسنون » أى طين أسود منتن كثير الصلصلة ، فإذا استمد مزاج الإنسان من طبيعة ذلك الطين شيئاً فقد استمد ما يصور تلك الصفات ... ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح لنا باب هذا الأفق من طبيعة الإنسان فيما يرويه عنه أبو موسى الأشعرى : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن والخبيث والطيب » — قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح — فرسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بهذا الكلام الدقيق العميق إلى أن طبيعة طينة المرء تضرب فى كيانه حتى تظهر فيما يعرف به من صفات حسنة أو رديئة .

أما قوله جل ثناؤه : « ونفخت فيه من روحى [2] » فأمر دقيق خطير كثير المزالق . ولا نحب أن نتكلف فيه ما ليس لنا به علم ، وحسبنا العلم الذى يبدو لنا من ظاهر قوله سبحانه : « ونفخت فيه من روحى » ، على أن يكون مفهوما أن الله عز شأنه إذ أسند النفخ إلى ذاته فقال : « ونفخت » لا يريد أن له نفخا على مثال ما يجرى منا ،

(١) سورة السجدة الآية ٦ — ٩ (٢) الآية ٢٩ الحجر

فليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فليعتقد كل إنسان أن النفخ حصل ، وليجنب نفسه تصور الهيئة التي جرى عليها ؛ فكل ما خطر ببالك فالله بخلافه .

أما الروح الذي أضافه سبحانه إلى نفسه في قوله : « ونفخت فيه من روحي » فنحب أن نعتمد في فهمه على القرآن الكريم نفسه ؛ فمن قال به صدق ومن حكم به عدل . ولقد قال العلماء إن الروح جاء في القرآن على عدة أوجه :

١ — الروح المذكور في قوله تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون (١) » وفي قوله : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم (٢) » وهو روح عظيم من أمر الله لم يذكر لنا شيئاً آخر عنه .

٢ — جبريل عليه السلام ، وذلك قوله سبحانه : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين (٣) » فهذا الروح الأمين هو جبريل إذ المعروف أنه هو الذي كان ينزل بالوحي من عند الله تعالى : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله (٤) » ؛ وهو كذلك روح القدس لقوله تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق (٥) » .

٣ — عيسى عليه السلام ، إذ سمى بأنه روح من الله في قوله سبحانه : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (٦) » .

٤ — الوحي ، وذلك قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا (٧) » وقوله : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده (٨) » .

٥ — سرٌّ من لدنه يمد به الله سبحانه من يشاء من عباده المؤمنين فيكون لهم من صفات الثبات والقوة والسكينة ونحوها ما يتم به التأييد والنصر ، وذلك قوله تعالى : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه (٩) » .

فأي هذه الخمسة يمكن أن يطمئن العقل إلى أنه هو الذي نفخه الله في الإنسان ؟ إن العقل لا يطمئن إلى أنه هو الروح الذي يقوم والملائكة صفاً ، ولا إلى أنه جبريل

(١) سورة النبأ الآية ٣٨
(٢) سورة القدر الآية ٤
(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣ — ١٩٤
(٤) سورة البقرة الآية ٩٧
(٥) سورة النحل الآية ١٠٢
(٦) سورة النساء الآية ١٧١
(٧) سورة الشورى الآية ٥٢
(٨) سورة النحل الآية ٢
(٩) سورة المجادلة الآية ٢٢

ولاعيسى عليهما السلام ، وليس هو الوحى كذلك ، وبقى الأخير وهو السر الذى تكون به الصفات الطيبة القوية يؤيد الله به المؤمنين . والنفس إليه أميل .

ونحن نستبعد أن يكون المراد بإرسال هذه النفخة هو إجراء الحياة الحيوانية فى بدن آدم عليه السلام ، لأن الروح لم يذكر فى القرآن بهذا المعنى قط . . . ذلك لأن الحياة الحيوانية أمر مشترك بين الحيوان والإنسان ، فليس له من جلالة الشأن مايستحق أن تسجد له الملائكة حين يجرى فى بدن آدم صاحبه . . . هذا وقد ورد فى الحديث الصحيح فى قوله صلى الله عليه وسلم : « . . فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر . خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك الملائكة ، وعلمك كل شىء . . » فلو كان الذى نُفخ فى آدم هو الحياة الحيوانية المشتركة بين كل من الإنسان والحيوان لما رآها المؤمنون خصوصية ترشحه لمقام الشفاعة فى القيامة .

هذا إلى أن الواقع فعلا من أمر الإنسان فى هذه الأرض يرشد إلى أنه ممتاز بسر فى إدراكه وصفاته جعله سيد هذا الأرض المتصرف فى كل مافيها من ظاهر وخفى ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1] » .

فالحياة فى آدم لم تكن حيوانية صرفة ، بل كان يمازجها سر اللطيفة القدسية التى أمدها بها حين نفخ الله فيه من روحه فجعلت له فى طبيعته مصدراً لإلهام الخير وصفات الكمال .

* * *

فنحن — إذن — بإزاء ناحيتين تمد كل منهما مزاج الإنسان بخصائصها : الأولى : ناحية الطين ، أو ناحية الحيوانية المحض ، وهى تمده بأوصاف الطين المقررة فى مثل قوله سبحانه : « صلصال من حمأ مسنون[2] » .

فإناء الصلصال هو المتخذ من الطين الجاف ، فإذا نقر صلصل أو سمعت له صلصلة ؛ ولا يكون صلبا متماسكا كإناء الفخار أو الخزف الذى أنضجته النار فصار صالحاً لكثير من أنواع الاستعمال . . فإذا ورث الإنسان تلك الصفات فهو فارغ أجوف ضعيف تافه لايتماسك لمهمات الأمور ، أينما توجهه لايأت بخير ؛ ومثله كثير فى كل مجتمع من أولئك الذين يشبهون الطبل الأجوف بالادعاء الكثير والجعجعة التى لا طحن معها . . . ولقد

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠

(٢) سورة الحجر الآيات ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ .

ورد فى القرآن الكريم التنفير من صفات أولئك الذين يقولون مالايفعلون ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ وهؤلاء الترثارين الذين يبغضهم الله . . الخ .

ولسنا بصدد استخراج كل الصفات السلبية الميتة التى تسرى — إذا سرت — إلى مزاج الإنسان من جبلته الأرضية ، ويكفى أن نلفت الأنظار إلى ما عساه أن يرثه من الحمأ المسنون وهو الطين الأسود المتغير الرائحة .

وهذا الكلام لايتعارض أبداً مع ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله علية وسلم من قوله : « فجاء بنو آدم على قدر الأرض : فجاء منهم . . والسهل والحزن ، والخبيث والطيب » فإنا نعرض لبيان ما يكون عليه الكيان الخلق إذا ما خُلِّى الإنسان إلى طبيعة الصلصال والحمأ المسنون وحدها . . والرسول عليه السلام يعرض لبيانه بعد أن ترك له أن يأخذ من خصائص الروح ما شاء .

وهذا مبحث عميق خطير واسع الآفاق ، ولكنا نجتزىء منه بأن جبلة الإنسان الحيوانية سلبية محض من حيث الإمداد بالفضائل القوية الكريمة ؛ ولكنها حين تمد بسر مما نفخ الله سبحانه تنجب ما شاء من تلك الصفات . . فشأن تلك الجبلة شأن الأرض الميتة الهامدة ، لانفع منها ولا غناء لها إلا إذا أُطلق عليها الماءالطهور فأحياها وأنبتت به من كل زوج بهيج .

أما الناحية الأخرى — التى تمد الإنسان من خصائصها — فهى ناحية الروح التى ذكرنا آنفا ؛ ولعلك أدركت أنها تمثل الجانب الإيجابى فى الإنسان ، أو المصدر الذى يمده بثمار الروح ، وهل ثمارها إلا الحياة ، والقوة ، والحركة ، والجمال ، والنور والإخصاب . . . الخ ؟

* * *

وهذا الذى قررنا يصل بنا إلى أن الله سبحانه حين يذكر فى القرآن الكريم أنه ينزل الماء على الأرض الميتة فيحيها وتنبت من كل زوج بهيج ، لايريد إرشادنا إلى دقائق قدرته وحكمته فقط ، ولا إيراد البرهان على إمكان البعث فحسب ، بل يريد إلى جانب ذلك تنبيه المؤمن إلى وجوب إحياء قلبه أوأرض بشريته بخصائص الروح التى بث فى فطرتنا وأنزل علينا فى كتابه ، ومنه قوله جل ثناؤه « ألم يأن الذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال

عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون(١) » .

والمؤمن المخاطب بقصة آدم عليه السلام يرى — على ضوء ما قدمنا — أنه مكلف بالانبعاث إلى فضائل الحق والنهوض إلى أسباب الحياة . . يرى أن عليه أن يحي نفسه بما سلك الله فى فطرته من ينابيع الحياة ، وأن يستنبت فى بشريته كيانا من صفات الحق ، وفضائل الخير ونور الهداية ، فمن هدى إلى ذلك وأعين عليه فهو الإنسان الحى — ولا معنى للحياة التى ينادى إليها فى القرآن إلا هذا — . . أما من استغنى وأصم أذنيه ومر كبهيمة الأنعام فهو الميت ، وإن بلغ من قوته أن يصارع الثيران ، وليس لموت النفوس معنى إلا هذا حين يرد فى مثل قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون(٢) » .

ولقد هدى الصحابة رضوان الله عليهم إلى إحياء قلوبهم واستنبات ما شاء الله من الفضائل فى أرض بشريتهم ، وكان مددهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله ، وما فى الفطرة من سر الحياة والاستجابة . . ولقد وصف الله ذلك منهم ، وضرب المثل له فى التوراة والإنجيل « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه(٣) » .

ولكل زرع ثمر فما ثمر هذا الزرع الذى به نحيا بواطننا ونحيا فيها ؟ ثمره الشجاعة فى الحق أينما كان ، والمجاهدة للباطل وأهله حيث وجدوا : أى أن الغاية التى يجب أن ينتهى إليها جهد المؤمن من تربية نفسه أن يستنبت فيها الجندى المجاهد الذى تملأ الشجاعة كل أقطاره . . ودون ذلك لا . . واقرأ معنا قوله سبحانه فى ثمر هذا الزرع المبارك : « كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزارع ، ليغيظ بهم الكفار » فهل يبلغ المؤمن أن يغيظ ويوقع به إلا إذا استوفى كل خصائص المجاهدة والشجاعة .

ولعل مما تطيب له نفسك ويؤنسك فى هذا المقام أن تقرأ عكس ذلك فى أوصاف أولئك الفارغين الذين حرموا نفوسهم أن تحيا بالحق ؛ فكانت شيئاً ميتاً لاهمة به ولا نهضة « كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم » وليس أبلغ فى وصف الجبن

(١) سورة الحديد الآية ١٦
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢
(٣) سورة الفتح الآية ٢٩ .

وتفاهة صاحبه من ذلك الهلع الذى يصور له أنه مقصود بالشر من كل صيحة ، ولو كانت صيحة الراعى بغنمه ، أو الطفل بأمه .

وإذا كانت خصائص الجندية والمجاهدة هى الثمرة التى ينتهى إليها نضج الحياة فى كيان المؤمن فإن لهذا الزرع الزكى فضائل أخرى ، وثماراً تنضر وجه المجتمع ؛ واقرأ قوله تعالى فى مناقب أولئك الذين شُبهوا بالزرع أنفسهم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار . . رحماء بينهم . . . تراهم ركعا سجداً . . . يبتغون فضلا من الله ورضواناً . . . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ؛ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه[1] . . . الخ » .

ولا تحسب أننا بعدنا قيد شعرة عن النظر فى خصائص ما جبلنا عليه سبحانه من ناحيتى الطين وسر الروح ؛ فما جاءت القصة إلا لننظر فى نفوسنا هذا النظر ، ونسويها على مثال ما عرض علينا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . . . والله نسأل أن يوفقنا فى ذلك إلى ما يرضيه .

« يتبع »



سمو الفقر . . .

فقير على طمريه نفحة حيدر ⁂ أعز لنا من ألف كسرى وقيصر
ودين الشباب الحر بأس وعزمة ⁂ وإعلان قول الحق والمنطق الجرى
وإن جنود الله ليست ثعالباً ⁂ تراوغ من جبن وتعوى وتفترى
يسير على ليث الشرى نهب رزقه ⁂ عسير عليه أن يبيع ويشترى

« إقبال »

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .

تعريف بالكتاب الكريم

للأستاذ الدكتور معروف الدواليبي

الكتاب هو القرآن الكريم ، وهو أجل من أن يعرف أو يحد بحد ، وهو الأصل الأول والمصدر الأساسى لأحكام الشريعة الإسلامية ، وقد أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منجما من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده إلى التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاده .

وقد كان نزول القرآن كما أشرنا إليه منجما أى مجزأ ؛ تنزل منه الآية أو الآيات حسب مقتضيات الزمن ومطالب المجتمع .

وقد قُسم القرآن إلى سور ، وبلغ مجموع مافيه من سور أربع عشرة ومئة سورة ، أولها سورة الفاتحة وآخرها سورة الناس .

وتتألف كل سورة من آيات ، وقد بلغ مجموع ما فى القرآن من آيات « ٦٣٤٢ » آية ، منها نحو خمسمائة آية فقط هى آيات تتعلق بالأحكام .

وأول ما نزل منه قوله سبحانه وتعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . وآخر ما نزل منه قوله تعالى يوم حجة الوداع . « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

والمدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران ، واثنان وعشرون يوماً .

أهداف القرآن ومقاصده :

قامت دعوة القرآن على هدفين أساسيين : —

أولا : الثورة على التقاليد غير المعقولة .

ثانياً : إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا ، سواء فى عقائده الدينية أو فى صلاته الاجتماعية .

وتحقيقاً لهذين الهدفين العظيمين ، كان مجمل ما تناوله القرآن من مقاصد ، تارة بالثورة عليه وتارة بالإصلاح هو المقاصد الأربع التالية .

أولا : العقائد .

ثانياً : الواجبات الدينية .

ثالثاً : الأخلاق

رابعاً : الحقوق بجميع فروعها .

الروح المحكمة فى الأهداف والمقاصد :

وإن هذه الثورة التى أعلنها القرآن ، وذلك الإصلاح الذى نادى به ، سواء فى العقائد والواجبات والأخلاق والحقوق ، وقد تحكمت فيها جميعاً روح واحدة ، وفكرة سامية بارزة ، اجتمعت فى المبادىء التالية .

أولا : الدعوة إلى « الحياة » .

ثانياً : الدعوة إلى « الخير » .

ثالثاً : الأمر « بالمعروف » .

رابعا : النهى عن « المنكر » .

خامسا : الاحتكام فى كل ذلك إلى « العلم والعقل » .

ولقد تفنن القرآن فى تقرير هـذه المبادىء ، وفى الدعوة إلى مراعاتها فى جميع الأهداف والمقاصد ، حتى بث فى نفوس المؤمنين حينذاك ثورة على المنكر لم يُعهد لها نظير فى التاريخ ، وبعث فيهم روح الدعوة إلى الحياة والخير ، وكون فيهم نزعة إلى الأمر بالمعروف بصورة جعلت نشاطهم فى هـذا المضمار أمراً عجبا ، وحملهم فى ذلك على الاحتكام إلى العلم والعقل ؛ فقلب بذلك معدنهم ، وجعلهم بحق حينذاك خير أمة أخرجت للناس .

ولقد جاء فى القرآن تقريراً للمبدأ الأول قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

كما جاء فيه تقريراً للمبدأ الثانى والثالث والرابع قوله تعالى :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير .

« ويأمرون بالمعروف ،

« وينهون عن المنكر .

وجاء فيه تقريراً للمبدأ الخامس قوله تعالى لنبيه : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى » .

وقوله تعالى : « كذلك يفصل الله الآيات لقوم يعقلون » .

وقوله تعالى : « نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

وقوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب »

وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

معنى الدين فى القرآن :

إن ما نقلناه أعلاه من قليل من الآيات لرسم روح القرآن المتحكمة فى أهدافه ومقاصده ، يكشف لنا عن معنى للدين غريب اليوم عن مفاهيم أكثر الناس ، وهذا ما يجب التنبه إليه منذ الآن .

لقد ذكر علماء الغرب تعاريف كثيرة للدين وقالت الموسوعة الفرنسية الكبرى للعلوم والآداب والصناعات(١) : « إن أحسن هذه التعاريف قبولا هو التعريف الذى وضعه كوبليت دالفييلا Coblet d' Aviella حيث قال : « إن الدين هو الطريقة التى يحقق بها الإنسان صلاته مع قوى الغيب العلوية » ثم ذكرت الموسوعة تعريفاً آخر فقالت : وقد وضع جايمس دارمستيتر James Dermestter تعريفا فقال : « إن الدين هو ما يشتمل على كل معلوم وكل سلطة لا تتفق والعلم » .

وإننا إذا نظرنا إلى مفهوم الدين فى القرآن ، على نحو ما قد أسلفناه من أهداف القرآن ومقاصده والروح المتحكمة فيه رأينا أن الإسلام الذى سماه القرآن « ديناً » يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الدين المنقول من علماء الغرب ، والمسيطر على مفاهيم أكثر الناس فى هذه الأيام .

ذلك أن الإسلام ، وإن سماه القرآن دينا عملا بآخر آية نزلت منه وهى قوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » وهو

---

(١) La Grande Encyclopèdie des Sciences des Lettres et des Arts, article Religion.

رغم ذلك قد تجاوز فى أهدافه ومقاصده تلك الحدود الضيقة وغير المعقولة التى وضعها علماء الغرب للدين أو وضعوا الدين فيها .

لقد تجاوز الدين فى مفهوم القرآن تلك الحدود من « صلات الإنسان مع قوى الغيب العلوية » إلى حدود أخرى أعطاها نفس الاهتمام ، ألا وهى « صلات الإنسان مع الإنسان » وفوق ذلك فقد حمل المخاطبين به على الاحتكام فى كل تلك الصلات إلى « العلم والعقل » .

إننا إنما لفتنا النظر إلى هذه الفوارق الأساسية ما بين مفهوم الدين فى القرآن ، وبين مفهومه لدى الغير ، لنتجنب بذلك أعظم خطيئة وقع فيها كثير من علماء الغرب فى نظرتهم إلى الحقوق الإسلامية كحقوق دينية فحكموا عليها بالجمود .

ولعدم التمشى مع المصلحة ، بسبب ما عرفت من مفهومهم لمعنى الدين ، قال الأستاذ سانتيللانا Santillana « هناك رأى منتشر جداً يعتبر من العبث أن نحاول التوفيق ما بين حقوقنا وبين مذاهب الإسلام ، وأن مجموعة الأحكام الإسلامية غير قابلة الانسجام مع قواعدنا ، وهى معادية لأفكارنا ، وأنها بلا شك غير أهل للتطور والتقدم ، وذلك على ما يزعمون بسبب طبيعتها الخاصة ألا وهى كونها قانونا دينياً » .

ولقد شعر الأستاذ سانتيللانا بخطر هذا الخطأ المنتشر فى أوربا ، ولذلك عرضه ثم أخذ يرد عليه . غير أن ما نقلناه إليك آنفا من روح القرآن المتحكمة فى أهدافه ومقاصده ما هو كاف وحده للرد على هذا المفهوم الخاطىء ؛ ولذلك فقد كان الرأى والعقل والقياس — وكل ذلك اسم للاجتهاد كما سنرى — أصلا من أصول الفقه ، ومصدراً من مصادر الشريعة ، وهذا ما جعلها قابلة للسير مع مصالح المجتمع فى العصور الماضية ، وأهلا لكل توسع وازدهار .

طريقة القرآن فى التعبير :

إن للقرآن أسلوبا خاصا فى التعبير ، ومن لم يعرف هذا الأسلوب الخاص أخطأ كثيراً فى فهم آيات القرآن ، ولم يدرك الصلة ما بين آية وبين أخرى .

وإذا عرفنا بأن هدف القرآن فى بيانه إنما هو إصلاح المجتمع إصلاحا كاملا ، شاملا لجميع نواحيه فى العقائد والواجبات والأخلاق والحقوق ، عرفنا بالضرورة بأن القرآن لن يكون فى أسلوبه وتعبيره كما نعهد فى كتاب علمى خاص بفن واحد من هذه الفنون أو موضوع واحد من هذه المواضيع .

. فليس موضوع القرآن العقائد وحدها ليأخذ فى تبيانها واحدة بعد أخرى كما نعهد ذلك فى كتاب من كتب العقائد .

وليس عشر من القرآن مقصوراً على الكلام فى فن الأخلاق أو مختصاً بالبحث فى علم الحقوق ، ليسير فى عرضها على نحو ما عرفناه فى الكتب الخاصة بالأخلاق أو بالحقوق ؛ وإنما الهدف فى القرآن هو كما قد أشرنا إليه سابقاً « إصلاح المجتمع إصلاحاً عاماً شاملا » ، فهو يتناوله مع جميع ما يتعلق بكل ناحية منه من مبادىء وقواعد .

فمن العبث إذن أن نفتش عن صلات ما بين الآيات فى سورة كما لو كان الأمر فى واحد فقط من هذه المواضع فى العقائد أو الواجبات أو الأخلاق أو الحقوق . وإنما نفتش عن هذه الصلات على ضوء مبدأ أو عدة مبادىء قد افتتحت بها السورة مستهدفة فيها إحدى الفكر العامة ؛ فعند مايفتتح القرآن إحدى سوره ويستعد فى مطلعها بمبدأ ، أو يندد بفكرة لايلبث أن يتبع ذلك بآيات ، شرحاً وتقريراً حتى يأتى فى ذلك على جميع ما يتعلق بالمبدأ والفكرة من عقائد أو واجبات أو أخلاق أو حقوق (١) .

ذلك هو أسلوب خاص بالقرآن ، وإن عدم الانتباه إليه هو الذى جعل الكثير من المستشرقين يعتقدون بأن لا صلة بين الآيات فى كل سورة .

الطابع العام لآيات الأحكام

إن القرآن هو الأصل الأول للحقوق والمصدر الأساسى لأحكامها ، وكل ما يأتى بعده إنما هو فى الحقيقة متفرع عنه ، ومبنى عليه ، ومستمد من روحه (٢) .

لذلك كان أكثر ما ورد فى القرآن من أحكام إنما هو أحكام كلية ، وقواعد عامة (٣) مما تجب مراعاته فى القضاء ، ويجب الاعتماد عليه فى الاجتهاد .

وإن هذا الطابع الكلى العام لآيات الأحكام هو الذى جعل القرآن فى كثير من آياته محتاجا إلى بيان النبى ورأيه ، وقد قال تعالى لنبيه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » وقال أيضاً : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

---

(١) فى تأييد ذلك ما جاء فى كتاب الموافقات فى أصول الشريعة لأبى إسحق الشاطبى الجزء الثالث ص ٤١٢ — ٤٢٠ ، المطبعة الرحمانية ، طبعة أولى ، مصر .

(٢) كتاب الموافقات للشاطبى الجزء الثالث ص ٣٦٨ المطبعة الرحمانية طبعة أولى مصر .

(٣) كتاب الموافقات للشاطبى الجزء الثالث ص ٣٦٦ — ٣٦٨ المطبعة الرحمانية طبعة أولى مصر .

ولهذا فقد جاءت السنة النبوية إلى جانب القرآن ، وفيها بسط لمختصره ، وتفصيل لمجمله ، وبيان لمشكله (١) .

مصادر الحكم المعترف بها في القرآن :

إن أول مصدر للحكم والحقوق يعترف به القرآن هو آياته .

وبعد ذلك يعترف القرآن بمصدر ثان هو السنة النبوية فقد قال : « ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وإذا اعتبر القرآن السنة مصدراً من مصادر الحكم والحقوق ، فهو يعتبرها بجميع ما اعترفت به هي أيضاً من مصادر وذلك مثل الإجماع والاجتهاد — ومن الناس من يعتبر قوله تعالى : « لتحكم بين الناس بما أراك الله » اعترافا أيضاً من القرآن بالرأى والاجتهاد (٢) كمصدر من مصادر الحكم والحقوق ، كما يعتبر أن قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم » هو اعتراف بالسنة والإجماع .

وهنالك مصدر آخر يعترف به القرآن كمصدر من مصادر الحكم ، وذلك هو العرف عملا بقوله تعالى : « وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

والعرف إذا لم يعتبره الفقهاء أصلا خامساً من أصول الشريعة ، فذلك لأن الأعراف والعوائد ما هى إلا المصالح المعتبرة بين الناس ؛ وإن الشريعة ما تأسست إلا على اعتبار هذه المصالح (٣) . وإن اعتبار تلك العوائد والأعراف ضرورة شرعية (٤) تشهد لها أصول الشريعة الأربعة من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، ولو لم تعتبرها لأدى ذلك إلى تعطيل المصالح وتكليف ما لا يطاق وذلك غير جائز ولا واقع فى الشريعة الإسلامية .

---

(١) كتاب الموافقات للشاطبي الجزء الرابع صفحة ١٢ المطبعة الرحمانية ، مصر .

(٢) كتاب الموافقات للشاطبي الجزء الثالث ص ٣٦٨ المطبعة الرحمانية طبعة اولى ، مصر .

(٣) كتاب الموافقات للشاطبي ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٧ — ٢٨٨ المطبعة الرحمانية ، طبعة أولى ، مصر .

(٤) كتاب الموافقات للشاطبي ، الجزء الثانى ، ص ٢٨٦ .

ولذلك فإن العرف بهذا الاعتبار هو من روح الشريعة المشهود له فى أصولها الأربع ، وليس بأصل خامس مستقل عنها .

وإذا اعتبرت الشريعة الإسلامية العرف مصدراً من مصادر الأحكام ، فذلك ما لم يصطدم بنهى شرعى كما هو الشأن فى تحريم الربا ، أو بمبدأ حقوقى مثل مبـدأ « عدم حل أكل الأموال بالباطل » كما هو الشأن فى تحريم بيع ثمار الأشجار قبل أن يظهر صلاحها [١] . مما كان معروفا ومعتاداً عليه عند العرب قبل الإسلام ثم جاء الإسلام وحرمه .

خليفة ...

كتب عدى بن أرطاه — عامل كان لعمر بن عبد العزيز — إليه .

« أما بعد : فإن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شىء من العذاب . »

فكتب إليه عمر . « أما بعد : فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر ، كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله . إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قبله عفواً وإلا فأحلفه فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلى من أن ألقاه بعذابهم والسلام » .

---

(١) صحيح البخارى كتاب البيع ، وبداية المجتهد لابن رشد الجزء الثانى ص ١٤٩ مطبعة المعاهد ، القاهرة .

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبى زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

١ — بعث الله كل نبى من الأنبياء بمعجزة تشده لها العقول ؛ وتقف عندها القدرة البشرية ، فتعجز عن الإتيان بمثلها ، وتحمل من أنار الله بصيرته على الإذعان والتسليم ، والإيمان والاطمئنان . وكل معجزة تناسب العصر الذى بعث فيه النبى ، وتتفق مع ما تدركه عقولهم من حدود القدرة البشرية فى موضوع المعجزة وذاتها وقد تكون علاجا لحالهم ؛ فمعجزة موسى كانت فى بلد أتقن السحر ، فجاءت من جنسه ، ومعجزة عيسى كانت فى قوم خضعوا لحكم المادة ، ولم يعترفوا بغيرها ، فجاءت معجزته عليه السلام متجهة كلها لإثبات ما وراء المادة ، بل إن ولادته عليه السلام نفسها كانت من هذا النوع ؛ فهى وحدها برهان على سلطان الروح ، وتفكك الأسباب المادية ، وتراخيها عن مسبباتها ؛ ووجود تلك المسببات من غير قيام الأسباب .

٢ — ولقد كانت كل المعجزات التى حكيت عن النبيين السابقين معجزات مادية حسية تكشف عن معنى روحى ، وعن تنزيل سماوى ؛ فقد كانت تقرع الحس فيخضع ، وتَبْدَهُ العقول فتخنع ، فيذعن من أزال الله عن قلبه الغشاوة ، وينكر من غلبت عليه شقوته ، وعمت كل نواحى نفسه ضلالته .

ولكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مادة تقرع ، ولا أمراً حسياً ترى العيون إعجازه رأى العيان ، بل كانت أمراً معنوياً تتأمله العقول والأفهام ، وتتعرفه المدارك البشرية فى كل الأزمان ، ولم يفقد حجيته ولم يزل إعجازه كر الغداة ومر العشى .

٣ — وهنا يثور بادى الرأى ؛ ويلمح النظر سؤال لماذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أمراً معنويا ، والمعجزات السابقة أموراً حسية ؛ أو لماذا كانت معجزة محمد كلاما متلوًّا ، ومعجزات غيره وقائع مادية ؟

إن الجواب عن ذلك السؤال مشتق من شريعة محمد ذاتها ، ومن حقيقة القرآن الكريم ؛ فشريعة محمد صلى الله عليه وسلم خالدة باقية خوطبت بها الأجيال من مبعثه عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ وقد خوطب بها الناس جميعاً فى كل بقاع

الأرض مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت أقاليمهم ، وتضاربت عاداتهم . فكان لا بد أن تكون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم متفقة مع هذا العموم ، ومتلائمة مع هذا الخلود ؛ ولا يمكن أن تكون كذلك إذا كانت وقائع مادية تنقضى بانقضاء وقتها ، ولا يعلم بها علم اليقين إلا من عاينها ؛ فالنار التى ألقى فيها خليل الله إبراهيم ولم تحرقه لم يعلمها علم اليقين إلا الذين رأوها ، وعصا موسى التى انقلبت حية تسعى ، وتلقف ما يأفكون لم يعلمها علماً جازماً إلا الذين شاهدوها ، وإبراء عيسى للأكمه والأبرص لم يعلم به إلا الذين لمسوه .

أما معجزة محمد فهى ذلك القرآن المتلو المشتمل على الشريعة المحكمة وهو باق يُرى ويتلى إلى يوم القيامة فيعلم حقيقته من التقى بالنبى صلى الله عليه وسلم وعاينه وخاطبه ، ومن جاء بعد عصر الرسول عليه السلام بعشرة قرون ، بل بعشرات القرون إن امتد عمر الإنسان فى هذه الأرض عشرات القرون ، ولقد حفظه مُنزله فى الأجيال كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »

فالناس فى كل الأجيال بعد محمد عليه السلام يرون معجزته رأى العيان ، كمن شاهدوا محمداً وخاطبوه . وإن كان لهؤلاء الصحب الكرام فضل علم فهو مشتق من مشافهة النبى صلى الله عليه وسلم خطابه ، والتحدث إليه ؛ وهو مَشرِق الحق ومصدر العرفان ؛ وروح الهدى ؛ ونور الوجود .

وإذا كانت الأجيال كلها ترى تلك المعجزة وتفهمها فهى حجة الله القائمة عليها ؛ فإن ضلت لا تضل عن جهالة ، ولا عن نقص فى البينات ، ولا عن شك فى الأمر ؛ بل عن عمى فى البصيرة ، وتحكم الهوى ، وسيطرة الأوهام .

٤ — ولقد تكلم العلماء قديماً وحديثاً فى موضع الإعجاز فى القرآن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم الكبرى ، فمن قائل إنه ما اشتمل عليه من قصص صادقة لم يعلمها النبى الأمى عن غير طريق الوحى ؛ إذ لم يجلس إلى معلم ، ولم يتعلم ، ولم يكن كثير الرحلة حتى ينال علم التجربة بالأسفار ؛ بل لم يتجاوز بطحاء مكة إلا مرتين إحداهما فى الثانية عشرة ، والثانية فى نحو الخامسة والعشرين ؛ فصدقها مع هذه الأمية دليل على أنها من عند الله .

ومن قائل إن الإعجاز فى اشتماله على حقائق علمية كونية لم يصل إليها العقل البشرى إلا بعد قرون ، وقد جاءت فى القرآن على لسان نبى أمى لم يتعلم ولم يجلس إلى معلم كما بينا !

ومن قائل إن ذلك الإعجاز فى أسلوب القرآن ونغمه ونسقه ، وعلى ذلك الأكثرون ،

وهو ما تومىء إليه عبارات القرآن الكريم ؛ فقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله ولو مفتريات ، فعجزوا فكان أسلوب القرآن معجزاً لا ريب فى ذلك .

٥ — ونحن نرى أن كل ما ذكره العلماء سبباً لإعجاز القرآن هو بلا ريب من أسبابه ، غير أن سبباً واحداً لم نر العلماء قد ذكروه ، ونراه من أقوى الأسباب ، أو هو يعدل أقواها ، إن لم يكن أقواها جميعاً ؛ وبه القرآن يكون معجزاً لكل الناس لا للعرب وحدهم ، ولا لجيل من الأجيال ، بل يكون معجزاً للأجيال كلها ؛ ألا وهو شريعة القرآن ، فما اشتمل عليه القرآن من أحكام ، سواء ما كان منها يتعلق بالأسرة أو ما يتعلق بالمجتمع ؛ وما يتعلق بالعلاقة الدولية فريد فى بابه لم يسبقه شرع سابق ، ولم يلحق بما وصل إليه شرع لاحق ؛ وإذا كان ذلك كله قد جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب ، لم يتعلم قط لا بالقلم والقرطاس ، ولا بالتلقين والتوقيف ، ولا بالتجربة والأسفار ؛ إن ذلك هو الإعجاز الذى تتيه العقول فى تعرف سببه إلا أن يكون ذلك من عند الله العلى الحكيم ؛ وكذلك قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

٦ — هذا كلام إجمالى ، وهو يحتاج إلى بعض من البيان ؛ ولأجل أن نتبين قيمة ذلك الشرع فى ذاته ، ونظر الناس يجدر بنا أن نرجع إلى الماضى السحيق ، ونتطلع إلى المستقبل البعيد .

أما فى الماضى فنجد أن الشرع الذى اقترن بظهور محمد الرسول الأمين هو قانون الرومان ؛ فقد كان الشرع المسيطر فى التطبيقات العملية والقضائية فى مصر والشام وغيرها من البلدان التى تصاقب البلاد العربية وتحيط بها من الغرب والشمال ، ويقول علماء القانون اليوم إنه من أكمل الشرائع التى تفتق عنها العقل البشرى ، ولا زال يعتبر أصلا لكثير من الشرائع القائمة انفرعت من أصوله وقامت على دعائمه .

وإن من يريد أن يعرف منزلة الشريعة الإسلامية ، وأنها فى درجة فوق مستوى العقل البشرى فليوازن بينها وبين ذلك القانون الرومانى، لأن قانون الرومان قد استوى على سوقه ، وبلغ نهاية كماله فى عهد جوستنيان سنة ٥٣٣ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو فى هذا الوقت كان صفوة القوانين السابقة ، وفيه علاج لعيوبها ، وسد لخللها . من يوم أن أنشئت روما سنة ٧٤٤ قبل الميلاد إلى سنة ٥٣٣ بعده ، أى أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو ثلاثة عشر قرنا ظهرت فيها الفلسفة اليونانية ، وبلغت أوجها ؛ وقد استعانوا فى تلك التجارب القانونية بقوانين سولون لأثينا ، وقوانين ليكورغ لإسبارطة والنظم اليونانية عامة ، والمناهج النظامية والفلسفية التى فكر فيها الفلاسفة اليونان لبيان أمثل

النظم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل ؛ كالذي جاء في كتاب القانون وكتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة والعلماء في عهد اليونان والرومان .

وإن شئت فقل إن القانون الروماني هو خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى ثلاثة عشر قرنا ، في تنظيم الحقوق والواجبات . فإذا وازنا بينه وبين ما جاء على لسان محمد النبي الأمي ، وأنتجت الموازنة أن العدل فيما قاله محمد ، وما استنبط الفقهاء من بعده يكون من الحق علينا أن نقول إن أساس شريعة محمد ليس من صنع بشر إنه صنع العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه .

٧ — وفي أي جانب اخترت الموازنة بين ما اشتمل عليه القرآن ، وما اشتملت عليه الشرائع التي سبقته أو عاصرته بدا لك الفرق ما بين السمو الروحي ، والأخلاق الأرضية .

فمن ناحية المساواة القانونية نجد الشريعة قد وصلت إلى أعلى درجاتها بينما القوانين التي عاصرتها لم تعترف بأصلها ؛ فالقرآن يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والشرائع التي سبقته وعاصرته لم تعرف تلك المساواة بين الأجناس والألوان ، بل لم تعرف المساواة بين آحاد الأمة الواحدة .

وبينما شريعة القرآن تخفف عقوبة الأرقاء فتجعل عقوبتهم نصف عقوبة الحر ، نجد قانون الرومان يضاعف عقوبة الضعفاء ؛ فالقرآن يقول في الإماء : « فإذا أحصن ، فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » وكذلك العبد إن أتى بفاحشة فعقوبته نصف عقوبة الحر .

ولكن قانون الرومان يقول : « ومن يستهوى أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله ، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض »[١]

وإن النظر العادل يقر بالبداهة نظر شريعة القرآن ؛ لأن العقوبات يجب أن تسير بنسبة تصاعدية مع الأشخاص ، لا بنسبة عكسية فتكبر جريمة الكبير ، وتصغر عقوبة

---

(١) مدونة جوستنيان ص ٣١٧ ترجمة المرحوم الأستاذ عبد العزيز فهمي باشا .

الصغير ، لأنه إذا هانت النفس على صاحبها سهل عليه الوقوع فى الجرائم ؛ فكان التخفيف ، وإذا كبرت قيمة الرجل فى أعين الناس كانت عليه تبعات بمقدار عظمته ، وكانت صغائره كبائر ، وتضاعفت العقوبة ؛ فالجاه والثروة وغيرها ليست متعا خالصة خالية من تبعات ، بل عليها تبعات بقدرها .

وإن القوانين التى تسير عكسا لاطردا كالقانون الرومانى قوانين ظالمة تَحيفُ ، لأنها تستمد منطقها من القوة الغالبة ؛ فكلما كان الشخص من ذوى الجاه ضعفت عقوبته ، وكلما كان من الضعفاء زادت من عقوبته ؛ فهو يحمى الشريف ، ولا يحمى الضعيف . وقد سمى القرآن ذلك حكم الجاهلية ؛ ولذا قال الله فى حق اليهود عندما طلبوا أن يحكم النبى على الشريف الزانى بغير العقوبة المقررة : « أفحكم الجاهلية يبغون . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »

ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

٨ — ولقد كان الضعيف مأكولا ضائعا ، والفقير بائساً جائعاً ، حتى جاء الإسلام فشرع قانون الزكاة ، وجعلها حقا معلوما فى مال الغنى ، لا يخلص له إلا بعد إعطائها حتى لقد قال الشافعى رضى الله عنه : إن الغنى إذا وجبت الزكاة فى مال معين له كان غير مالك للجزء الذى يقابلها ، ولذلك إذا تصرف فيه من غير إخراجها يكون تصرفه باطلا وإذا مات من غير أن يؤدى ما وجب عليه من زكاة أخذت من تركته ، وقدمت على سائر الديون عند الشافعى رضى الله عنه .

ولم يعتبر الإسلام الزكاة إحساناً مذلا ، بل أوجبها على الأغنياء يقبضها ولى الأمر بالنيابة عن الفقراء ، ويوزعها عليهم كل بمقدار حاجته . ولقد هم عمر رضى الله عنه عام وفاته أن يمر على الأقاليم بنفسه ليوزع على الفقراء حقوقهم فى بيت المال ؛ كل بمقدار حاجته ، وكل بمقدار عياله ؛ ومن كان له حق فى بيت المال غير الزكاة كان له عطاء بمقدار بلائه وعنائه فى الإسلام .

٩ — وبينما كان قانون الرومان فى بعض أدواره يجعل الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء ؛ كان القرآن الذى نطق به النبى الأمى وقد نزل عليه من عند الله ، يقرر أن الحكومة تسدد ديون المدينين الذين يعجزون عن الوفاء بديونهم إذا لم تكن

الاستدانة سرفا ؛ بل يكون على ولى الأمر سداد الديون التى يستدينها ذوو المروءات للمقاصد الاجتماعية كالصلح بين الناس ، فتسدد من بيت المال ولو كان المدينون غير عاجزين عجزاً كليا عن سدادها .

ويؤدى هذا كله من مال الزكاة كما نص القرآن الكريم .

إنى أحسب أن هذه مثل عليا لم يصل إليها بعد قانون من قوانين البشر ؛ فإذا كان الذى جاء بهذا رجلا أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم قط ، ألا يكون هذا دليلا على أن ما جاء به من عند الله العلى القدير ؟

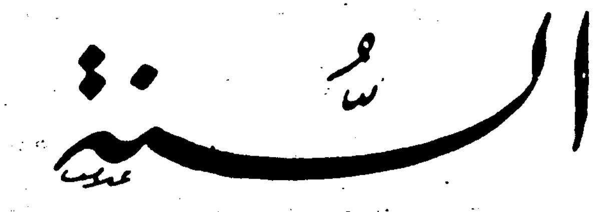
١٠ — ولقد كان الرق حقيقة مقرره ثابتة . أقر فلاسفة اليونان نظامه ، واعتبروه نظاماً عادلا لا ظلم فيه ، ولم تستنكره شريعة من الشرائع قط ، وقرر أرسطو أن الرق نظام الفطرة ؛ لأن من الناس ناساً لا يمكن أن يعيشوا إلا أرقاء ، وآخرين لا يكونون إلا أحراراً .

فجاء النبى الأمى وقال : « الناس سواسية كأسنان المشط » وقال : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ولم يسجل القرآن الرق فى محكم آياته ؛ بل سجل العتق ؛ فلم يرد فى القرآن نص قط يبيح الرق ، بل نصوصه كلها توجب العتق ؛ حتى إنه فى حرب الإسلام العادلة لم يذكر القرآن رق الأسرى ، بل قال : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد ، وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » فلم يذكر فى الأسرى إلا المن عليهم بإطلاقهم أو فداءهم بالمال إن كان فى قومهم قدرة على الفداء .

ولقد وسع القرآن فى أسباب العتق ؛ وفتح باب الحرية الإنسانية على مصراعيه ، واعتبره قربة ولو كان الرقيق غير مسلم ، فقال : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة » وأوجب على من يفطر فى رمضان عامداً من غير عذر عتق رقبة ، ومن يحلف ويحنث عتق رقبة ، ومن يجرى على لسانه عبارة لامرأته يشبهها بأمه عليه عتق رقبة ، ومن يقتل مؤمناً خطأ عليه عتق رقبة ، وإذا طلب العبد عتقه فى نظير أن يؤدى ثمنه — مثلا — كاتبه مولاه على ذلك وتركه ليكسب ثمنه ، ومن ملك بعض محارمه عتق عليه ، ومن ضرب عبده ظلماً فكفارته عتقه ؛ . . . وهكذا تعددت أسباب العتق ، حتى إنها لو نفذت كلها لا يبقى رقيق فى دار الإسلام أكثر من سنة .

كل هذا فى زمن أهملت فيه حقوق الإنسان ؛ فإذا كان هذا بعض ما اشتمل عليه القرآن ألا يكون دليلا على أنه من عند الرحمن ؟

ونكتفى بهذا القدر ، وقد نعرض للأسرة والميراث والتعامل ليعرف الناس كيف سبق القرآن كل ما وصل إليه عقل الإنسان .



لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

نحن فى عصر اضطربت فيه النظم العالمية الكبرى ، وعجزت عن إيجاد السلام والرخاء لشعوب العالم . ومهما يكن فى قادة الأمم المسيطرة من عيوب أدت إلى هذا الاضطراب ، فإن الذى لا ريب فيه عندنا أن الأسباب المباشرة لشقاء العالم هى تلك النظم التى لم تثبت حتى الآن صلاحها لحل مشاكل الإنسانية على وجه يريحها من الحروب والمنازعات ، ويُبعدها عن جو القلق الذى تعيش به فى أعقاب الحروب العالمية الدامية ، بعد أن كانت تعيش خلال الحروب فى جو قاتم من الدماء والدمار والخراب .

وعقيدتنا نحن المسلمين أن لا مناص لهذا العالم إن أراد لنفسه السعادة والسلام ، من الرجوع إلى تعاليم الله الصافية الخالصة من التحريف والتلاعب والتبديل والتغيير ، والتى جاءت رسالة الإسلام متحمسة لها ومعبرة عن رسالتها أوفى تعبير وأدقه وأوسعه وأكثره مراناً ومسايرة للعصور ، وتحقيقاً لحاجة بنى الإنسان على اختلاف ديارهم وأزمانهم .

وشريعة الإسلام فى مصادرها الأولى ، وفى بحوث فقهائها وأئمتها ، رحبة الفناء واسعة النهج تتسع لكل حادثة وتحل كل مشكلة ، وتقيم موازين القسط بين الأفراد والجماعات والحكومات ، وتؤمّن للدولة الشعب الطائع اليقظ الراقى المتحفز ، وللدنيا الدولة العادلة المسالمة التى تجنح للسلم حين يجنح له غيرها ، وتذود عن كرامة العقيدة والأخلاق والحرية الصادقة حين يميل إلى العدوان عليها معتد أثيم أو باغ ماكر .

ومصادر التشريع الإسلامى معروفة لدى المسلمين موثوقة محفوظة ، ولا شك أن السنة المطهرة وهى ثانية هذه المصادر أوسعها فروعا وأحفلها نظما وأرحبها صدراً . إذ كان كتاب الله الكريم متضمنا للقواعد العامة فى التشريع والأحكام الكلية فى الغالب ؛ مما جعله خالداً خلود الحق . بيد أن السنة الكريمة عنيت بشرح هذه القواعد وتبيين تلك النظم وتفريع الجزئيات على الكليات مما يعرفه كل من درس السنة دراسة وافية ، ومن ثمة لم يكن للمشرعين من علماء الإسلام مندوحة من الاعتماد على السنة واللجوء إليها والعناية بها والاسترشاد بأحكامها المنصوصة على أحكام الحوادث الطارئة .

ولقد تعرضت السنة فى القديم لهجمات بعض الفرق الإسلامية الخارجة عن سنن الحق ، لشبهات طارئة لم تجد فى نفوس أتباعها ما يدفعها ، كما تعرضت فى العصر الحاضر لهجمات بعض المستشرقين من دعاة التبشير والاستعمار ، ابتغاء الفتنة وابتغاء هدم هذا الركن المتين من أركان التشريع الإسلامى الوارف الظلال ، وتابعهم فى ذلك بعض المؤلفين من أبناء أمتنا اغتراراً بما يضفيه أولئك المستشرقون على بحوثهم من زخارف علمية لا تثبت أمام النقد العلمى النزيه ، واندفاعا وراء ميول نفسية وشبهات فكرية لم يحاولوا تمحيصها على ضوء ما بين أيديهم من تراث السلف وبحوث العلماء الراسخين ، فصادف رأى المستشرقين فى السنة هوى كامنا فى نفوس هؤلاء فضربوا على ذلك الوتر وغنوا بذلك الحداء :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبــا خاليــا فتمكنا

. . . لذلك رأيت أن أعالج هذا البحث عن السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى مبينا الأدوار التاريخية التى اجتازتها ، وجهود علماء الإسلام فى صيانتها وتمحيصها ، مناقشا ما أورده المتحاملون عليها فى القديم والحديث بروح علمية هادئة ليستبين به وجه الحق وتتضح به طلعة السنة المطهرة بيضاء مشرقة ، وأختمه بشذرات من تاريخ أشهر علماء الإسلام من مجتهدين ومحدثين ممن لهم دور بارز فى حفظ السنة وتدوينها وفى استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها .

الباب الأول

الفصل الأول

معنى السنة وتعريفها :

السنة فى اللغة الطريقة محمودة كانت أو مذمومة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] ومنه حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع[2] » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الشيخان .

وهى فى اصطلاح المحدثين ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو سيرة ، سواء أكان من قبل البعثة أو بعدها(١) وهى بهذا ترادف الحديث عند بعضهم .

وفى اصطلاح الأصوليين ما نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ؛ فمثال القول ما تحدث به فى مختلف المناسبات مما يتعلق بتشريع الأحكام كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال(٢) بالنيات » وقوله « لا وصية لوارث(٣) » ومثال الفعل ما نقله الصحابة من أفعال عن النبى صلى الله عليه وسلم فى شئون العبادة وغيرها كأداء الصلوات ومناسك الحج وآداب الصيام وقضائه بالشاهد واليمين ، ومثال التقرير ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم من أفعال صدرت عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرضا أو بإظهار استحسان وتأييد ؛ فمن الأول إقراره عليه الصلاة والسلام لاجتهاد الصحابة فى أمر صلاة العصر فى غزوة بنى قريظة حين قال : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » فقد فهم بعضهم هذا النهى على حقيقته فأخرها إلى ما بعد المغرب وفهمه بعضهم على أن المقصود حث الصحابة على الإسراع فصلاها فى وقتها ، وبلغ النبى ما فعل الفريقان فأقرهما ولم ينكر عليهما ، ومن الثانى ما روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه أكل ضبا قدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يأكل النبى صلى الله عليه وسلم منه فقال له بعض الصحابة أو يحرم أكله يا رسول الله ؟ قال: « لا ولكنه ليس فى أرض قومى فأجدنى أعافه » .

وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعى سواء كان ذلك فى الكتاب العزيز أو عن النبى صلى الله عليه وسلم أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف وتدوين الدواوين ، ويقابل ذلك « البدعة » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين(٤) من بعدى » .

وفى اصطلاح الفقهاء ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير افتراض ولا وجوب وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة ، وقد تطلق عندهم بما يقابل البدعة ومنه قولهم طلاق السنة كذا وطلاق (٥) البدعة كذا .

---

(١) قواعد التحديث ٣٥ ــ ٣٥ وتوجيه النظر ص ٢ . (٢) أخرجه الشيخان .
(٣) أخرجه الدارقطنى عن جابر، وهو حديث مشهور حتى ادعى ابن حزم أنه متواتر .
(٤) الموافقات جـ ٤ ص ٤ والحديث أخرجه أبو داود والترمذى .
(٥) إرشاد الفحول ص ٣١ .

ومرد هذا الاختلاف فى الاصطلاح إلى اختلافهم فى الأغراض التى تعنى بها كل فئة من أهل العلم .

فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الهادى الذى أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة ؛ فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال سواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لا .

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذى يضع القواعد للمجتهدين من بعده ويبين للناس دستور الحياة ؛ فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التى تثبت الأحكام وتقررها .

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعى وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك .

ونحن هنا نريد بالسنة ما عناه الأصوليون لأنها هى التى تبحث عن حجيتها ومكانتها فى التشريع ، وإن كنا تعرضنا لإثبات السنة وتاريخها بالمعنى الأعم الذى عناه المحدثون .

(يتبع)

رهبانيـــه . . .

روى أحمد عن أنس بن مالك قال قال صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل » .

المؤتمر الدولي للقانون المقارن

يعترف للشريعة الإسلامية

بثروتها القانونية وتلبيتها لحاجات العصر

ينعقد المؤتمر الدولى للقانون المقارن مرة فى كل أربع سنوات وله شعب منها شعبة الشرائع الشرقية . وقد قرر فى دورته الماضية بلندن أن تخصص شعبته الشرقيه أسبوعا للشريعة الإسلامية ، وعقدت هذه الشعبة جلستها تنفيذاً للقرار فى باريس واشترك فيها كبار أساتذة القانون فى الشرق والغرب ورأسها الأستاذ ميو الأستاذ بجامعة باريس ، واتخذت فى جلستها النهائية يوم ٧ يوليو ١٩٥١ القرار الإجماعى التاريخى الآتى :

« إن المؤتمرين — وقد أبدوا الاهتمام بالمشاكل المثارة أثناء أسبوع القانون الإسلامى وما جرى فى شأنها من مناقشات أوضحت بجلاء ما لمبادىء القانون الإسلامى من قيمة لا تقبل الجدال ، كما أوضحت أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا النظام القانونى الكبير إنما يدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية جميع حاجيات الحياة العصرية — يبدون الرغبة فى أن يواصل الأسبوع أعماله كل سنة ، ويكلف مكتب الأسبوع بوضع لائحة بالموضوعات التى يجب — عقب المناقشات التى جرت خلال الأسبوع — أن تكون موضع البحث أثناء الدورة القادمة ، ويرجون تأليف لجنة لوضع (قاموس) للقانون الإسلامى من شأنه أن يسهل الإقبال على تأليف القانون الإسلامى وأن يكون موسوعة للمعارف القانونية الإسلامية مرتبة حسب الأساليب العصرية » .

SEMAINE DE DROIT MUSULMAN
PARIS 2-7 JUILLET 1951

VOEU ADOPTE A L'UNANIMITE DANS LA SEANCE FINALE
DU 7 JULLET 1951

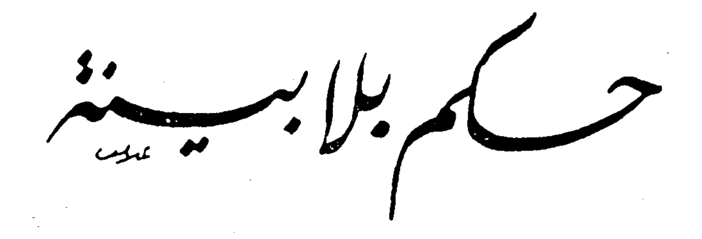
Les Congressseistes,

Etant donné l'intérêt suscité par les problèmes evoqués au cours de la SEMAINE DE DROIT MUSULMAN et par les discussions auxquelles ils ont donné lieu, dont il est résulté clairement que les principes du droit musulman ont une valeur indiscutable et que la variété des écoles à l'intérieur de ce grand systéme juridique implique une richesse de notions juridiques et de technique remarquables, qui permet à ce droit de rêpondre à tous les besonins d'adaptaticn exiges par la vie moderne.

Emettent le voeu que la SEMAINE poursuive ses travaux d'année en année.

Chargent le Bureau de la SEMAINE d'établir la liste des sujest qui, à la suite des discussions ayant eu lieu au cours de la SEMAINE, devront faire l'objet d'un examen au cours de la session prochaine.

Souhaitent qu'un Comité soit formé pour établir un dictionnairs de droit musulman destiné à faciliter l'accès aux ouvrages de droit musulman et constituant un répertoire des connaissances, juridiques musulmanes, exposées suivant les méthodes moderns.



للأستاذ محمود محمد شاكر

يوشك تاريخ الإسلام أن يصبح لهواً على الألسنة ، ولغواً فى الصحف ، ومرتعاً للظن المتسرع دون اليقين المتثبت ، وهدفاً لكل متقحم على الحق بمثل جراءة الباطل ، ومخاضة يخوض فيها كل من ملك لساناً ينطق ، أو عقلا يفكر ، أو قلما يخط . وإنما ابتلى زماننا بهذا لأسباب كثيرة ، أولها : أن العصر الذى نعيش فيه يُعجل الناس عن تحقيق معنى الدين نفسه فى حقيقة قلوبهم . وآخرها : أن المسلمين فى زماننا بلغوا من العجز والقلة والهوان على أنفسهم مبلغاً مهد لشياطين الإنس والجنّ مسالك كثيرة إلى مقر الغرور فى بعض الأفئدة ، فسوّل لأصحابها فيما يسول أن افهموا الإسلام « فهماً جديداً » ، فكان لهذه الكلمة سحرها حين مست مكان الغرور والكبرياء من نفوسهم ، واحتملهم هذا الغرور على أن يسيئوا الظن بما يفهمون من ماضيهم ، جله أو كله ، وخيل إليهم سوء الظن أن ذلك هو طريق الحق لإحياء دين الله فى نفوسهم وإقامة شريعته فى أرضه . ثم خرج بهم مخرجاً أوقع فى أوهامهم أنهم قادرون على أن يجددوا أمر هذا الدين ، بمجرد النظرة الخاطفة المعتسفة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفى تاريخ أسلافهم من المسلمين .

ولا أظننى أخطىء شيئاً فى التقدير إذا زعمت أن هذه النابتة ، لم يبتل الإسلام بمثلها قط ، على كثرة ما انتابه من النوابت المتتابعة على مدى عصوره كلها ؛ فى حال بأسه وسطوته ، وفى حال ضعفه وفترته . وهى عندى أخطر النوابت جميعا وأخوفها على دين الله ، لأنها نجمت فى عصر قد حطم جميع القيم الإنسانية العتيقة ، ودمر تراث الأخلاق التى فطر عليها ولد آدم فى الآباد المتطاولة . ولا أسيء الظن فأدعى أنهم يأتون ما يأتون عن عمد ، بل أقول إن وباء هذا العصر قد أصابهم ، منذ نقله الاستعمار إلى الأرض المسلمة ، فنشئوا فيه لا يكادون يحسون بالذى أصابهم من آفاته ، فاتسم تفكيرهم من أجل ذلك بسمة التحطيم والتدمير ، وسمة الغلو والجراءة ، وسمة الإصرار على تحقيق معانى الغرور الإنسانى فى أعمال الإنسان ، وأولها الفكر .

وقد تفشت فى أهل الإسلام منذ زمن قريب فاشية شديدة الخطر على تاريخ الإسلام كله ، بل على دين الله نفسه . نظرت متعجلة فى دين ربها ، وخطفت خطفة فى تاريخ أسلافها ، ثم انتزعت من ذلك كله حكما يدمغ المسلمين جميعا منذ القرون الأولى من الهجرة ، باطراح الدين واتباع الشهوات ، فزعمت مثلا : أن الإسلام لم يطبق ولم يعمل به إلا مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدة أبى بكر خليفة رسول الله ، ومدة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، ثم مرج أمر الإسلام واضطرب ! .

والخطأ فى مثل هذا الحكم الدامغ يكبر عن أن يسمى خطأ ؛ إنه الحالقة : حالقة الدين لا حالقة الشعر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ تستأصل دين الصحابة والتابعين ، وتستأصل أمانتهم فى تبليغه ، وتستأصل ما بذلوه فى نشره فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتستأصل تاريخهم ، وتستأصل تاريخ الحياة الإسلامية كلها ثلاثة عشر قرناً ! فيالها من بلوى تستهلك دين امرىء إذا نطق بها ، وتخسف بتقوى سامع إذا لم ينكرها ؛ ورد مثل هذه المقالة ، يوجب على منكرها أحد طريقين : إما أن يسرد على القائل بها تاريخ الإسلام كله بجميع تفاصيله ، ويقف به على موضع موضع منها ، وهذا شىء لا يتيسر فى كتاب واحد ، فضلا عن مقالة ، فضلا عن حديث . وإما أن يقفه على فسادها فى صريح العقل ، ويبين له ما تفضى إليه من بهت أمة كاملة ، بل أمم بأسرها ، بشىء لا يستطيع عاقل أن يحتمل وزره فى فكره وتقواه ودينه . وهذا هو أيسر الطريقين ، وأقربهما إلى تصحيح المقاييس ، وإلى إقامة التفكير على أصل واضح وثيق .

* * *

وكلة « الإسلام » كلمة شاملة لدين الله كله ، وإذا دخلت فى حكم قاطع كهذا الحكم « إن الإسلام لم يطبق إلا مدة رسول الله وأبى بكر وعمر » صار حكما شاملا بطبيعته ، فإذا ألقى إلى سامع ، لم يجد عندئذ مناصا فى العقل ولا فى اللغة ولا فى البيان ، من تعميم الحكم فى كل ما يتناوله لفظ « الإسلام » ؛ فإذا استمعه سامع كأهل زماننا الذين وصفنا قبل ، كان هذا الحكم ظلا كثيفا قاتما كئيبا يلقى على العصور الأولى كلها من قتامه وكآبته ، يدفع إلى الاستخفاف والتحقير والغلو فى التهزؤ بأهل هذه العصور ، والشك فى أمورهم ، ويعميه عن معرفة الحقائق ، ويصرفه إلى البحث عن المثالب يتسرع إليها ويتقممها من كل كتاب ومن كل خبر ، والناس أسرع شىء إلى سوء الظن ، فإذا كان سوء الظن والثلب والتحقير مما يعينهم على نسبة القدرة والصلاح والعلم والفقه إلى أنفسهم فهم عندئذ أسرع إليه من السيل إلى الحدور . وإذا كانت نسبة الصلاح والعلم إلى أنفسهم مدعاة إلى صرف أنظار الناس إليهم بالتسليم والتبجيل والإعجاب ، فسوء الظن

والثلب والتحقير ، أسرع فى عقولهم وألسنتهم من النار المتضرمة فى الهشيم اليابس ، وماذا بعد هذه البلوى ، إلا أن يصبح تاريخ الأمة المسلمة منذ اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٣ من الهجرة (منذ قتل عمر) إلى يوم الناس هذا فى سنة ١٣٧١ وقوداً لكلمة يزل بها لسان ، ويتبجح بها صوت ، وتستخفها أذن ؟ أى إنسان يرضى لنفسه هذه الظنة الجائحة ، فضلا عن إنسان عاقل ، فضلا عن مسلم ، فضلا عن مسلم يتقى الله ، يرجو رحمته ، ويخاف عذابه ؟

قتل عمر وخلف أئمة الصحابة ، فعاشوا زمن عثمان ، وزمن على ، وزمن معاوية رضى الله عنهم ، وبقيت منهم بقية فى عصر الأوائل من بنى أمية ، ثم خلفهم الذين اتبعوهم بإحسان من علماء الأمة وفقهائها وأهل دينها ، وهم متوافرون يومئذ إلى أوائل عصر بنى العباس ، وكانوا هم علماء الأمة ، وورثة النبوة ، القائمون ببث دين الله فى الأرض ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، المبلغون عن نبى الله ورسوله ، وعن أصحابه هذا الدين إلى الناس . وبهم بلغ المسلمون هذا الأمر كله ، وبما بلغونا من أمر الدين قامت حجة الله علينا ، وإلى ما بلغوا كان مرجع أئمة المسلمين وفقهائهم وعلمائهم طول هذه القرون . ولولا هم ، ولولا ما بلّغوا لدرست سنة رسول الله ، ولذهب الفقه ، ولفقد الناس الحجة والبرهان فى دينهم ، ولما وجدوا وسيلة لتحكيم الله وتحكيم رسوله فى شىء مما اختلف فيه من أمر الدين ، أفيمكن فى العقل أن يوصف العصر الذى كان فيه هؤلاء الأمناء على دين ربهم ، بأنه عصر لم يطبق فيه الإسلام ؟ ! وأين غابوا جميعا إذا كان الإسلام لم يطبق فى زمانهم ؟ ولو شهدوا ، وصحت هذه الكلمة على زمانهم ، فكيف يؤتمنون على ما بلغوا من أمر الدين ؟ .

بل إلى أى شىء يحتكم قائل هذه الكلمة فى الحكم على عصرهم ؟ أليس يحتكم ويرجعُ فى الحكم عليهم إلى ما بَلغَه هو من دين الله الذى بلّغوه هُمْ إليه ؟ وأنى له أن يعرفَ الإسلامَ إلا بما عرّفوه هُمْ له ولمن سبقه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ بل كيف يُعقَل أنْ يبلّغوا هذا الشىء الذى يستند إليه هذا القائل ، ويكونونَ هم أوّلَ الناقضين والهادمين بإغفالهم إقامته ، بل بعملهم على إقامة خلافه ؟ أفى العَقْل شىء بعد ذلك هو أفسَدُ معنى ومدخلاً ومخرجاً من هذه الكلمة الجائرة ، ومن هذا الحكم المستأصِل لدين هؤلاء الناسِ وعلمهم وأمانتهم ؟ كبرت كلمة وساء حكماً .

وأحبّ أن أزيدَ الأسئلة : ماهو هذا الإسلامُ الذى لم يطبق : أكفروا بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ أتركوا صلاتهم وأضاعوها وسهوا عنها ؟ أمنعوا

زكاتهم واحتجزوها فلم يؤدوا حق الله عليهم؟ أتركوا شهر صيامهم فأفطروه؟ أأبوا أن يحجوا إلى بيت ربهم قانتين مسبحين مكبرين؟ أعتزلوا الجهاد بأموالهم وأنفسهم رغبة عنه وحرصاً على الحياة؟ أأغفلوا أدبَ الله لهم وأدبَ رسوله؟ أنقضوا عهد الله فخانوا الأمانة وبغوا في الأرض؟ أعطَّلوا أحكام الله وفرضوا على الناس أحكاماً من عند أنفسهم؟ أشرَعوا في الدين ما لم يأذن به الله؟ أأبطلوا الحدود ونصروا الخارجين عليها والمعتدين؟ أأعرضوا بقلوبهم ووجوههم عن كل ما تضمَّنه كتابُ الله، وما احتوته سُنَّة رسوله، وعادوا في جاهليةٍ لا يعرفُ فيها لله دين، ولا يطاعُ له فيها أمرٌ، ولا ينتهى فيها عن منكر، ولا يؤتى فيها معروف؟ أرتكسوا هم والأمة كلها قرناً من بعد قرنٍ في تعطيل الإسلامِ في أحكامهم، وفي أنفسهم، وفي أبنائهم، وفي الذين دخلوا في هذا الدين حتى شمل ما بين الهند شرقاً إلى المغربِ الأقصى غربا، ومن حدود الروم شمالا إلى أقصى الأرض جنوبا؟ أيّ عاقل يستطيع أن يقول: نعم في جوابِ سؤالٍ واحدٍ من هذه الأسئلة، فضلا عنها كلها؟

ولو تغلغل المرءُ قليلا فسألَ نفسه: أمن الممكن لأمة تنقُض دينها هذا النقضَ، الذى استوجبَ ذلك الحكم، أن تفتح الأرضين كلها، وتحدث فيها أكبرَ تغيير حدث في تاريخ الجنس البشريّ كله: تتغير بهم ألسنة الناسِ إلى العربية، ودينهم إلى الإسلام، وتنابُذهم إلى الألفة، وتداعيهم باسم العصبية والجنسية، إلى شيء واحدٍ هو جماعة المسلمين، ويقومُ هذا الأمرُ في الأرض ثلاثة عشر قرناً، مع شدة ما انتابَ المسلمين على مرّ القرون من النوائب، إلى أن كانت النائبة الكبرى في هذا العصر، وهي نائبة الاستعمار، ويظلُّ مع ذلك هذا الرباطُ الوثيق مشدوداً، لا ينحلُّ من ناحية، إلا تداركته آلاف الأسباب من هذا التراثِ من نواح أخرى؟ أكان ممكنا لهؤلاء الذين خانوا أمانة الله أن يبلغوا هذا المبلغ؟ اللهم اشهد. فإنها كلمة لو صحت لأزالتْ العقول من مستقرّها. وصدقَ الله رسولَه والمؤمنين: «وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلفَ الذينَ مِنْ قبلهم، وليُمَكِّنَنَّ لهمْ دينَهُمُ الذى ارتضى لهم، وليُبَدِّلَنَّهُمْ من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

وما من حرف من هذه البشارة إلا أتمه الله على محمد وأصحابه وتابعيهم، إذ كانوا خيرَ أمة أُخرجتْ للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في سرّهم وعلانيتهم.

ومن الحق على من وسوس في قلبه هذا الحكم الشامل : أن الإسلام لم يطبَّق إلا مدةَ رسول الله، ومدةَ أبى بكر وعمر ، أن يسأل نفسه : بم يصحُّ مثل هذا الحكم ؟

إنّ بديهة العَقْل تجيبه بأنه لا يسوغُ لهُ أن يحكم على عصور كاملة بحكم شامل ، إلا بدلائل بينة المعانى صحيحة الأصول ؛ وشرطُ هذه الدلائل أن تكون مستقصية لأهل الإسلام جميعاً فى كل أرضٍ ، وأن تكون شاملة أيضا لكل ما يكون به إسلام الناسِ إسلاماً ، وأن يكون ما يدّعى المدّعى أنه قد أُبْطِلَ أمراً من أمور الإسلام التى لم يختلف عليها المجتهدون من العلماء والفقهاء ، وأن يكون هذا الإبطالُ جاريا مجرى الشريعة ، ومأمورة به كلُّ جماعة يشملها الإسلام ، فإذا فقد الحكم هذا الشرطَ ، فإنما هو تحكمٌ محضٌ وبهتانٌ خالصٌ ، ولست أظنُّ أن فى العالم كله إنساناً يوصف بالمعرفة ، يستطيع أن يؤيّد هذا الحكم ، بمثل هذه الدلائل ، على مثل هذا الشرط ، مهما أوتى من العلم ، ومن التتبُّع ، ومن سوء النية ، ومن براعة التخلُّص ، ومن تمام القدرة على إظهار الباطِلِ فى ثيابٍ مزوَّرة من الحق .

وإلا فإن هذا الحكم الشامل ، مظلمةٌ جائرة مُبيرة لأهل العصور الأولى من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة ، وقادحٌ بليغٌ فى دينهم وأمانتهم ، وجائحة طاغيةٌ تزيل كل ثقة بهم وبتاريخهم وأعمالهم ، وناقضٌ مُدَمِّر ينقضُ كل ما يشهدُ به التاريخ الذى كنا نحنُ آخرَ خلف له فى هذا العَصْر .

كلا ، بل أتجاوز ولا أطالب من يقضى بهذا القضاء ، أن يأتى بكل هذا الشمول ، بل أقتصر فأدعوه إلى أن يأتى بقضية مفردة عن الإسلام ، تجتمع لها هذه الشروط ، مصححة صادقة خالية من التوهم والغلو . وأنا على يقين من أن أحداً لا يطيق أن يفعل ، وأن الأمر أكبر من أن يحيط به بيان مبين وعلم عالم . وإنما يؤتى الغارز فكره فى هذه الضلالة المتحكمة باتخاذه الحادثة الواحدة المجردة من الاستقصاء والشمول ، ومن الاختلاف فى أمرها ، ومن شمول العمل بها وإنفاذها فى جماعات المسلمين — أساساً لاستقصاء مكذوب وشمول متوهم .

***

ثم أتجاوز مرة أخرى وألتمس لهذا الحكم الشامل مخرجا آخر ، أزعم فيه أن العربية والبيان والعقل تبيح مجتمعة أن يكون المراد بالإسلام فى هذا جزءاً من

الإسلام ، وأن يكون المراد بالدين لم يطبقوه فئة واحدة من المسلمين : فكيف يمكن أن يصح ؟

إن المدعى لمثله مطالب عندئذ أن يستقصئ هذا الجزء المعطل فى تاريخ العصور التى يشملها حكمه ، يوماً بعد يوم ، وحادثة بعد حادثة . وأن يدل دلالة لا يأتيها الشك أن ذلك هو الذى جرى به العمل فى كل جماعة من جماعات المسلمين ؛ وأن يأتى بالبرهان على أن هذه الفئة أصرت على أن تجعل مخالفة هذا الجزء ديدنها فى كل زمان ومكان ؛ وأنها استطاعت أن تجعل ماخالف حكم الله إلزاماً عاماً للناس كلهم بتشريع من عند أنفسهم يلزم الناس جميعاً العمل به والطاعة له . وهذه هى الشروط التى يقضى محض العقل أنها هى وحدها التى تبيح لامرىء أن ينطق بحكم شامل كهذا الحكم ، فإذا لم تتم له هذه الشروط ، فما هو إلا التعسف الغليظ الذى لا يبصر وجه الحق إلا فى ظلمات من الباطل ، إن صح وأمكن أن يكون التعسف قادراً عندئذ على أن يبصر .

ثم أتجاوز مرة ثالثة ، فأزعم أن من الممكن أن نلتمس شيئاً من الإسلام لا يدخله الخلاف ، قد أطبق الخلفاء جميعاً منذ قتل عمر رضى الله عنه — على تعطيله فما الشروط اللازمة لمثل هذا الممكن ؟ .

ينبغى أن يثبت المرء أولا أن الخليفة قادر على أن يأمر علماء الإسلام وفقهاءهم ومفتيهم وأمراءهم وعامة الناس منهم بهذا الذى يريد تعطيله ، وأنهم إن فعل أطاعوه جميعاً وعملوا بما أمر ، وأن هذا الشىء من الإسلام قد عطل تمام التعطيل فى الحياة الإسلامية كلها فى زمنه . ومن البين أن الخليفة رجل من المسلمين ، لا يملك أن يشرع للناس شرعاً يعمل به الفقهاء والقضاة والمفتون، ويخضع له عامة الناس علانية ويعملون به فى أنفسهم سراً ، وإذا بطل هذا الشرط ، بطل الحكم كله ، ولم يبق إلا أن الخليفة ربما قدر على أن يعطل حكما من أحكام الله ، فيما يمكن أن تناله يده ، وهو فى بيته أو قصره أو بلدته ، دون سائر بلاد المسلمين ، وأن هذا الحكم لا يلزم أحداً من القضاة ولا الأمراء أن يفعلوا فعله ، لأنه لا يملك أن يشرع لهم مالم يأذن به الله ، وأنا أقطع بأن تاريخ الإسلام كله ليس فيه حادثة واحدة ، استطاع خليفة أن يأمر قضاة المسلمين وعلماءهم وفقهاءهم بأمر يخالف كتاب الله وسنة نبيه ، فأطاعته الأمة كلها أو بعضها ، وعملت بما أراد ، وقضت على الناس بقضائه دون قضاء الله .

وينبغى أن يثبت المرء ثانيا أن الخليفة — أو غير الخليفة من أمراء المسلمين فى بلدان الأرض المسلمة — قد استطاع أن يجعل هذا التعطيل ، بهذه الشروط ، عملا

متوارثاً فى جيل بعد جيل ، وأن الأمة قد اتفقت على قبول تعطيله أبداً ، وأن هذا هو الذى جرى به العمل بلا ريبة ولا ادعاء ولا توهم ولا اعتساف ، وأنا أقطع أيضاً بأن هذا شىء لم يكن قط إلا بعد أن ضرب الاستعمار على هذه الأمة الإســلامية حضارته وثقافته ولون تفكيره .

فهذه الكلمة الباغية الجائرة منقوضة فى شمولها وفى تخصيصها ، ولا يستطيع منصف بعض الإنصاف أن يجد لها فى العقل مخرجاً ، ولا فى التاريخ شاهداً ، ولا فى الفرض المطلق وسيلة إلى تحقيق طرف منها . وهى لا تصح فى أحد محمليها إلا كانت حكما على عامة الصحابة والتابعين والفقهاء وخاصتهم بالكفر البواح . فلينظر امرؤ أين يُنزل عقله ؟ وفيم يورّط دينه وتقواه ؟ وإلى أى قرار تهوى به كلمة تعجب هواه ويستخفها لسانه ، ويتغذى بها غروره بنفسه ؟

ولم أجعل همى فى هذه الكلمات أن أسرد الحجج التى يحتج بها القائلون بهذا الحكم ولا أن أروى ما يعدونه مؤيداً لهم من روايات التاريخ والكتب ؛ فإنى إن فعلت كان لزاماً على أن أقدم نفس هذه المقدمة فى شروط الأحكام ، ومقدمة أخرى فى تمييز ما يعد تاريخاً ، ومقدمة ثالثة فى انتزاع الحكم العام من الحادثة أو الحوادث ، وهل هو صحيح فى نفسه أو غير صحيح . ثم آخذها واحدة واحدة فأبين وجه تأويلها أو فهمها أو ردها أو تجريحها إلى آخر ما ينبغى لكل من يتصدى للأحكام على أفراد فى التاريخ ، فما ظنك بأمم بأسرها فى تاريخ كامل كتاريخ العصور الإسلامية أولها وآخرها ، وكل ما رميت إليه أن أبين فساد مثل هذا الحكم الشامل ، وأسباب فساده ، وأن أكشف عن موضع المخافة وثقل الوزر ، وجناية التسرع ، فى تعميم الأحكام بلا بينة من العقل أو الحجة أو التاريخ . وأرجو أن يتاح لى أن أتناوله مرة أخرى بالبيان والتفصيل حتى يتجلى فيه وجه الحق ؟

التشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عوده

١ — الجرائم فى الشريعة الإسلامية هى المحظورات الشرعية التى زجر الله عنها بحد أو تعزير (١) . والجرائم على تعددها وتنوعها تنقسم من حيث جسامة العقوبة المقررة عليها إلى ثلاثة أقسام : جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية ، وجرائم التعازير (٢) . وجرائم الحدود وجرائم القصاص والدية محدودة العدد ، أما جرائم التعازير فعددها غير محدود ، وجرائم الحدود وجرائم القصاص والدية هى أكثر الجرائم وقوعاً ، وأجسمها عقوبة (٣) ، وهذا مما يدعوا إلى الاهتمام بدراستها دراسة مستفيضة .

ونحن حين نخص هذه الجرائم بالبحث فى القسم الخاص نسير على ما جرى عليه عرف الفقهاء وشراح القوانين ، فقد جرى الفقهاء على الاهتمام بجرائم الحدود وجرائم القصاص والدية دون غيرها ، كما جرى أكثر الشراح على أن يستعرضوا فى القسم الخاص الجرائم الهامة دون غيرها من الجرائم .

وإذا كان البحث سيتناول نوعين من الجرائم هما جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية فقد رأينا أن نخصص لكل نوع من الجرائم كتاباً ، وسيكون كل كتاب مشتملا على أبواب وفصول ومباحث بقدر ما يقتضيه الحال .

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى الجزء الأول ص ٦٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٧٨ وما بعدها .
(٣) نفس المرجع ص ٧٠٨ وما بعدها .

الكتاب الأول

فى الحـــدود

تمهيـــد

٢ — تعريف الحد : — الحد لغة هو المنع ، واصطلاحا هو العقوبة المقررة شرعا(١) ويطلق لفظ الحد عادة على جرائم الحدود وعلى عقوباتها ؛ فيقال ارتكب الجانى حداً ويقال عقوبته حد ، وإذا أطلق لفظ الحد على الجريمة فإنما يقصد تعريف الجريمة بعقوبتها أى بأنها جريمة ذات عقوبة مقدرة شرعا .

ويدخل تحت الحد بهذا المعنى جرائم الحدود وجرائم القصاص والدية لأن عقوباتها جميعاً مقدرة شرعاً ، لكن أكثر الفقهاء يخصصون لفظ الحد لجرائم الحدود وعقوباتها دون غيرها ، ويعرفون عقوبة الحد بأنها العقوبة المقدرة حقاً لله تعالى ؛ فيخرج بهذا التعريف العقوبات المقررة لجرائم القصاص والدية لأنها وإن كانت مقدرة شرعاً إلا أنها مقررة حقاً للأفراد ، كما تخرج عقوبات جرائم التعازير لأنها جميعاً عقوبات غير مقررة .

ومعنى أن العقوبة مقدرة أن الشارع عين نوعها وحدد مقدارها ولم يترك اختيارها أو تقديرها لولى الأمر أو القاضى ، ومعنى أنها مقررة حقاً لله أنها مقررة لصالح الجماعة وحماية نظامها .

والفقهاء حين ينسبون العقوبة لله جل شأنه ويقولون إنها حق لله يعنون بذلك أنها لا تقبل الإسقاط لا من الأفراد ولا من الجماعة .

وتعتبر العقوبة فى الشريعة حقاً لله كلما استوجبتها المصلحة العامة وهى دفع الفساد عن الناس وتحقيق الصيانة لهم ، فكل عقوبة يرجع فسادها إلى العامة وتعود منفعة

---

(١) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١١٣ — شرح الزرقانى ثامن ص ١١٥ — شرح الأزهار رابع ص ٣٣٣ — المحلى لابن حزم حادى عشر ص ١١٨

عقوبتها عليهم تعتبر العقوبة المقررة عليها حقاً لله تأكيداً لتحصيل المنفعة ، ودفع المضرة والفساد لأن اعتبار العقوبة حقاً لله يؤدى إلى عدم إسقاطها بإسقاط الأفراد والجماعة لها (١) .

٣ — الحد والجناية : — ويعبر بعض الفقهاء عن جريمة الحد بلفظ الجناية ويكتبون عن جرائم الحدود تحت عنوان الجنايات (٢) والجناية لغة اسم لما يجنيه المرء من شر وما اكتسبه، وفى الاصطلاح الفقهى اسم لفعل محرم شرعاً ، ولفظ الجناية مرادف اصطلاحاً للفظ الجريمة . ولما كانت الحدود جرائم فقد صح أن تسمى بالجنايات ؛ على أنه إذا كان كل حد جناية فليست كل جناية حداً ، لأن من الجنايات جرائم التعازير ، وعقوباتها غير مقدرة ، وإذا لم تكن عقوبة الجريمة مقدرة فهى ليست حداً .

٤ — جرائم الحدود : — جرائم الحدود سبع وهى : —

(١) الزنا . (٢) القذف . (٣) الشرب .
(٤) السرقة . (٥) الحرابة أو المحاربة .
(٦) الردة . (٧) البغى .

وهذا هو ما يراه جمهور الفقهاء ، ولكن ابن حزم يخرج البغى من عداد جرائم الحدود ويضع بدلا منه جريمة جحد العارية (٣) . وسنخصص لكل جريمة من هذه الجرائم باباً فيما يلى :

أما جريمة جحد العارية فسنتناولها أثناء الكلام عن جريمة السرقة .

(١) شرح فتح القدير ج رابع ص ١١٢ ، ١١٣ بدائع الصنائع ج ٧ ص ٥٦ .
(٢) الوجيز للغزالى ج ٢ ص ١٦٤ — بداية المجتهد ج ٢ ص ٣٣٠ .
(٣) المحلى لابن حزم الحادى عشر ص ١١٨ .

الباب الأول

فى الزنا

٥ — الزنا فى الشريعة والقانون : يختلف الزنا فى الشريعة عنه فى القوانين الوضعية ؛ فالشريعة تعتبر كل وطء محرم زنا وتعاقب عليه سواء كان من متزوج أو غير متزوج ، أما القوانين الوضعية فلا تعتبر كل وطء محرم زنا ، وأغلبها يعاقب بصفة خاصة على الزنا الحاصل من الزوجين فقط كالقانون المصرى والقانون الفرنسى ، ولا تعتبر ما عدا ذلك زنا ، وإنما تعتبره وقاعاً أو هتك عرض ، ولا تعاقب على الوقاع إلا فى حالة الاغتصاب ، فإن كان بالتراضى فلا عقاب عليه ما لم يكن الرضا معيبا . ويعتبر القانون المصرى الرضا معيبا إذا لم يبلغ المفعول به ثمانية عشر عاماً كاملة — ولو وقعت الجريمة بناء على طلبه هو — فإن بلغها اعتبر رضاه صحيحاً . والعقوبة على هتك العرض فى حالة الرضاء المعيب بسيطة لأن الفعل يعتبر جنحة .

ويدخل اللواط فى هتك العرض طبقا لقانون العقوبات المصرى سواء لاط الفاعل بامرأة أو برجل ، ويدخل فى هتك العرض أيضا اللواط الحاصل من غير المتزوجين .

ويعاقب القانون المصرى فى حالة الزنا الرجل والمرأة معا ، أما فى الوقاع وهتك العرض فلا يعاقب القانون إلا طرفا واحدا هو الفاعل سواء أتى المفعول به فى القبل أو الدبر ، وعلة ذلك أن القانون يبيح الفعل مادام مصحوبا برضاء المفعول به فإن كان رضاه منعدما أو معيبا اعتبر مجنيا عليه لا جانيا .

٦ — أساس عقوبة الزنا فى الشريعة وفى القانون : وتعاقب الشريعة الإسلامية على الزنا باعتباره ماسا بكيان الجماعة وسلامتها ، إذ أنه اعتداء شديد على نظام الأسرة . والأسرة هى الأساس الذى تقوم عليه الجماعة ، ولأن فى إباحة الزنا إشاعة للفاحشة وهذا يؤدى إلى هدم الأسرة ثم فساد المجتمع وانحلاله . والشريعة تحرص أشد الحرص على بقاء الجماعة متماسكة قوية .

أما العقوبة فى القوانين الوضعية فأساسها أن الزنا من المسائل الشخصية التى تمس علاقات الأفراد ولا تمس صوالح الجماعة فلا معنى للعقوبة عليه ما دام عن تراض إلا إذا كان أحد الطرفين زوجا ففى هـذه الحالة يعاقب على الفعل صيانة لحرمة الزوجية .

٧ – الواقع يشهد للشريعة : ولعل ما حدث فى أوروبا والبلاد الغربية عامة يؤيد نظرية الشريعة ، فقد تحللت الجماعات الأوربية وتصدعت وحدتها وذهب ريحها ، وليس لذلك من سبب إلا شيوع الفاحشة ، والفساد الخلقى والإباحية التى لا تعرف حداً ينتهى إليه ، وما أشاع الفاحشة وأفسد الأخلاق ونشر الإباحية إلا إباحة الزنا وترك الأفراد لشهواتهم واعتبار الزنا من المسائل الشخصية التى لا تمس صالح الجماعة .

بل لعل أشد ما تواجهه البلاد غير الإسلامية اليوم من أزمات اجتماعية وسياسية يرجع إلى إباحة الزنا ، فقد قل النسل فى بعض الدول قلة ظاهرة تنذر بفناء هذه الدول أو توقف نموها ، وترجع قلة النسل أولا وأخيراً إلى امتناع الكثيرين عن الزواج ، وإلى العقم الذى انتشر بين الأزواج. ولا يمتنع الرجل عن الزواج إلا لأنه يستطيع أن ينال من المرأة ما يشاء فى غير حاجة إلى الزواج وتحمل أثقاله ومتاعبه ، ولأنه لا يثق من أن المرأة ستكون له وحده بعد الزواج وقد اعتاد أن يجدها مشاعا بينه وبين الغير قبل الزواج .

والمرأة التى كانت أمنيتها الأولى الزواج ووظيفتها التى خلقت من أجلها إدارة البيت وتربية الأولاد ، هذه المرأة أصبحت فى كثير من الأحوال تنفر من الزواج ولا ترضى أن تستأثر لرجل ما لتنال ما عنده ، بينما هى تستطيع أن تنال ما عند عشرات الرجال دون أن تثقل نفسها بالقيود والأغلال. وقد أدى شيوع الزنا إلى مقاومة الحمل من جهة وانتشار الأمراض السرية من جهة أخرى ، وإذا كانت المقاومة للحمل تؤدى فى كثير من الأحوال إلى عقم النساء ، فإن انتشار الأمراض السرية يؤدى غالبا إلى عقم الرجال والنساء على السواء .

كانت المرأة تعيش فى كنف الرجل فى ظل الزواج فلما أضرب الرجال عن الزواج كان لا بد للمرأة أن تعيش فاضطرت إلى مزاحمة الرجل فى ميدان العمل لتنال قوتها فأدى هذا إلى تفشى البطالة وشيوع المبادىء الهدامة ، وألقى بشعوب أوربا فى بحر لجى يزخر بالفوضى والاضطراب .

ويستطيع الإنسان أن يرتب على هذه النتائج الاجتماعية نتائجها السياسية الخطيرة دون أن يخطىء الحساب. ولو تدبر هذه النتائج القائلون بأن الزنا علاقة شخصية لعلموا أن الزنا من أخطر الجرائم الاجتماعية وأنه أول ما يجب أن يحارب من الجرائم . ولقد حاربت الشريعة الإسلامية الزنا على هذا الأساس لتتجنب الوصول إلى هذه النتائج المخيفة ، وقررت أشد العقوبات للزناة ، حتى إنها اعتبرت من يزنى بعد إحصانه غير صالح للبقاء لأنه مثل سىء وليس للمثل السىء فى الشريعة حق البقاء .

ولقد كانت البلاد الإسلامية على العموم أكثر البلاد إقبالا على الزواج وبعداً عن الإباحية ، ولكن إباحة الزنا فيها على الطريقة الأوربية نقل إليها نفس الأمراض التي يشكو منها المجتمع الأوربي ؛ فقد أصبح الرجال يعرضون عن الزواج لأنهم ينالون حاجاتهم من المرأة دون زواج ، وبدأت المرأة لا تهتم بالاتصال بالرجل كزوج لأنها تستطيع أن تتصل به كما تشاء من غير طريق الزواج ، وقد صحب الإعراض عن الزواج قلة النسل والعقم وتفشى الأمراض السرية ، وبدأ النساء يتطلعن إلى مساواتهن بالرجال ويزاحمنهم في شق الأعمال ، وانحط مستوى الأخلاق والآداب العامة ، وغاض الحياء من الوجوه والنفوس . ولا علاج لهذا كله إلا بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية وتطبيق أحكامها ونبذ القوانين الوضعية والمبادىء الواهية التي تقوم عليها .



ولاة المسلمين معلمون

خطب عمر بن الخطاب الناس في موسم الحج فقال :

إني والله ما أبعث إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا من أموالكم ، ولكني أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ؛ فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفسي بيده لأقصنه منه .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان من المسلمين واليا على رعيه فأدب بعضهم إنك لتقصه منه ؟

فقال : أي والذي نفسي بيده لأقصنه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم .

حول دستور الباكستان

للأستاذ الدكتور اشتياق حسين قرشي

وكيل وزارة الداخلية الباكستانية

يتردد على ألسنة كثيرة وجوب فصل السياسة عن الدين ، ويحتج القائلون بذلك بأن كلا منهما يتصل بجانب مختلف من النشاط الإنسانى ؛ فالدين أساسه الإيمان ، والسياسة قاعدتها الفكر ، ويذهبون فى ذلك إلى أن الفصل يجب أن يكون تاما .

هذا رأى أنصاره كثيرون ، وهو المحور الأصيل الذى تدور حوله اعتراضاتهم على الاتجاه الإسلامى فى صياغة دستور باكستان الجديد . ولكننى أعتقد أن هذا الفصل الذى يقولون به مستحيل لسبب سهل هو أن تفكيرنا مصطبغ دائما بقصدنا ، وعقيدتنا متأثرة حقا بتفكيرنا ، ومالم يعمل أحدنا فكره فلن يستطيع أن يحمل إيمانا صحيحاً بشىء ، وإذا عشنا بغير إيمان فإنه يستحيل علينا أن نرسم لتفكيرنا وجهته ومنهاجه .

فكيف يمكن إذن تصور الشخصية المزدوجة التى لا صلة بين سياستها ودينها والتى تزعم أن هذه الجوانب من نشاطها يحكمها الدين وحده ، وأن تلك الجوانب الأخرى لا يحكمها غير العقل ؟ كيف يكون عندنا نحن المسلمين أن يصبح الدين ثوبا نلبسه للمعبد يوم الأحد وننزعه حين نخرج منه لنمارس شئون حياتنا اليوميه ؟ تلك فكرة غريبة كل الغرابة عنا ، ودعونا نناقشها بعض الشىء .

ما الذى يقوله مشروع دستور الباكستان ؟ إنه يقول إن سياستنا يجب أن تقوم على أساس من معرفة الله ، فى حين يقول غيرنا أن هذا الإله قد يكون موجوداً ولكن لا شأن له بحياتنا . وذلك يذكرنى بأغنية كان يترنم بها الفلاسفة المتأخرون فى الإمبراطورية الرومانية : «ليس هناك آلهة ، ولكن إذا فرض ووجد ثَـمَّ إله .. فلا يجوز له أن يتدخل فى شئون الناس » .

وكانت هذه الأغنية الأذان بأفول نجم الرومان ، واستشرى شرها فأتى بنيانهم من القواعد . . . فهل يراد بنا أن نضل اليوم هذا الضلال ؟ وهل يجوز لنا أن نفصل السياسة عن القيم الروحية الغالية ومثل الحياة العليا ؟ لقد قيل إننا إذا سمحنا للدين أن يدخل عالم السياسة فإن من وراء ذلك الاضطرابات والثورات والحروب ، ولسنا نجادل

فى أن الإنسانية وقعت أحيانا فى هذا وخاضت باسم الدين حروبا أليمة . ولكن أليس من الحق كذلك أن الحروب التى اشتعلت نارها فى حياتنا نحن لم تكن واحدة منها فى سبيل الدين ؟ ! . وإننى لأتحدى أى إنسان أن يجد فى تاريخ البشرية كلها حربا دينية كان فيها من الوحشية والدمار ما شاهدناه بأنفسنا فى حروب هذا القرن من قريب أو بعيد .

إن نقص الإيمان ، لا الإيمان : هو المسئول عن اضطراب الناس ، وإنه الخروج على حدود الله والتمرد على وازع الروح الإلهى العميق الذى يلقى السحب الداكنة على بدائه الحياة . ويعقد أنفس الناس ، ويمتلىء به البعض حقداً حتى على الخير الذى يملكه غيرهم ولا يملكونه . بل إننى أزيد على ذلك فأقرر أنه ما من فترة فى تاريخ الإنسان هربت فيها السياسة من تكاليف المثل الأعلى ، الذى لاتقره فى حياة الناس إلا روح الدين ، إلا كانت فترة دمار وخراب . وأنه حينما ثارت مشاعر الناس من أعماقهاثورة لغير الله والحق ، وعلى غير موازين معروفة تحكم حياتهم فإن هذه الثورة لاتسوق إلا إلى شر محقق .

أما إذا قيل إنه لايجوز أن نسمح للتعصب بمفهومه البغيض أن يؤثر على علاقتنا بالناس فإن جوابى على ذلك بدون تردد « نعم » . ولكن أحب أن أطمئن القائلين بذلك أننا فى مشروع دستورنا قد أقررنا علاقتنا بغير المسلمين على أساس من التسامح الكامل، وتقدير ثقافتهم وحريتهم .

وقد اعترض بعضهم على العبارة التى تكررت فى مشروع الدستور : « . . . كما ينص الإسلام » وأجدنى هنا مدفوعا إلى إظهار عجبى من هؤلاء الذين يفرقون كلما ذكرت كلمة الدين أو كلمة الإسلام . . . لماذا ؟ . . هل درستم تعاليم الدين ؟ . . . هل كلفتم أنفسكم قراءة تاريخه قراءة المنصف المتجرد للحق ؟ قد يكون من أسباب هذا الفرق الخلط بين الناحيتين القانونية والسياسية فى طبيعة الضمانة التى يحرص عليها غير المسلمين فى الباكستان ، فإن هذه غير تلك ، وعناصر الضمانة القانونية ستكون فى أيديهم مكتوبة محددة وقد رأوا مطلعها فى المشروع ، أماالضمانة السياسية فإن ركيزتها الحقيقية فى الباكستان وفى كل دولة هو أن تكسب الأقلية عاطفة الأغلبية وثقتها . على أن المجتمع الإسلامى يتمتع فى ذلك بميزة لاتوجد فى سواه ، فإن الحياة السياسية فيه لا تصوغها الأفكار والمذاهب المتغيرة المتطورة ولكن تحدها من كل جوانبها حدود قاهرة من أمر الله فليس لغير المسلمين بعد هذا أن يخشوا تغيراً سياسياً

يضرُّهم ما دمنا قد قررنا فى مطلع دستورنا أن حكم الله الرحيم هو الأساس العميق الذى أقمنا عليه دولتنا هذه الناشئة .

وقال البعض ما الذى يضمن لنا أن تبقى النصوص التى تضعون الآن مفسرة تفسيراً واحداً يضمن لغير المسلمين الأمن والسلامة ؟ والرد على ذلك هو أن مجال التفسير لا مفر منه ، واحتمال تغييره خطر قائم فى كل دستور ، بل هو فى الدستور الإسلامى أقل خطراً لأن التأويل محكوم بمبادىء الإسلام الأساسية ، ولأن أساس هذه المبادىء خضوع أهواء الناس المتغيرة لحكم الله الذى لا يتغير .

وقد قال البعض هنا إننا بالعودة إلى التعاليم الدينية والحكم الإلهى ، إنما نضع أساس الحكم المطلق وننادى بتأليه الدولة .! ومقدمة مشروع الدستور كفيلة بتطمين هؤلاء فإنها قررت أن سلطة الدولة مستمدة من الشعب ، أما السلطان المطلق فهو لله وحده . . . فكيف يستطيع رجل يؤمن بالله إذن أن يتخذ الدولة إلها ؟ إن الحكم المطلق لا يعرفه علم السياسة ، ولا مكان له فى القرن العشرين إلا فى أحلام الطغاة ومخيلة الحمقى والبلهاء . وليس من ضمان ضده إلا تنمية المعانى الإنسانية العالية فى أنفس الناس . فكيف يمكن القول بعد ذلك بأن هناك تناقضا بين هذه المعانى وبين الديمقراطية ، أو أن يقال إن الحكومات الديمقراطية غير الدينية هى النوع الوحيد من الديمقراطية .

ما الذى يراد بكلمة « غير الدينية » ؟ إن معناها فى القاموس « الحكومة التى لا تعتمد على إرادة الكهنة » ونحن نقول : إنه لا كهانة فى الإسلام فما الذى يخشاه الناس من حكومة الإسلام بعد هذا ؟

***

إن الشعوب يجب أن تساق عن طريق مثلها العليا ومبادئها الخالدة ، ومن أجل ذلك قامت دولة الباكستان ، وقام مشروع دستورها الإسلامى الجديد ؟

في التاريخ ...

فكرة ومنهاج

للأستاذ سيد قطب

التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرة وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ويستجيب لوقوعها في مداركه ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد .

فأما إذا كان يتلقاها بادىء ذي بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس — عن عمد أو غير عمد — فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد ، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية : أي أنه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل . ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئاً أو ناقصاً .

هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ؛ ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية — بصفة عامة — لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة ، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص . عنصر الروحية الغيبية — وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية ، والطريقة التجريبية على وجه أخص — وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة .

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية على وجه التخصيص لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص في الطبيعة الغربية ، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين وهي شتى كثيرة .

***

هذه المقدمة الصغيرة لا بد منها لبيان ما في تناول المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي من نقص طبيعي في الإدراك، ونقص طبيعي في الفهم، ونقص طبيعي في التفسير والتصوير. فانعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه، لا بد أن يقابله نقص في القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها. وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم، أو على الأقل لا يسلم على علاته.

هذا النقص يعد عيباً في منهج العمل التاريخي ذاته، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة أو تصوير حالة. ومن ثم فالمنهج الأوربي في البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك ناشئاً عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية والتاريخية، أو ناشئاً عن تعمد المؤرخ الأوربي تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين في الدراسة. هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية بل لتناول الحياة الشرقية على وجه العموم. ولكن عدم الصلاحية يتجلى في جانب الدراسات الإسلامية أوضح وأقوى.

وثمة سبب للشك في قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية.

ذلك أنه لا يخفى أن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية. وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع. والأوربي بطبيعته ميال إلى اعتبار أوربا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث. ومن هنا تتخذ في نظره أشكالا معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصح الأشكال. وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها.

وإذا كان بديهياً أن أوربا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوربي لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلى الماضي . . . أدركنا مدى انحراف الزاوية التي ينظر بها الأوربي للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التي يضطر إليها اضطراراً، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعيبة.

ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة، وانتفاء الأسباب التي تؤثر على هذه النزاهة، فإذا نحن وضعنا في الحساب ما لا بد من وضعه، وما لا يمكن جدياً إغفاله من أسباب ملحة قاهرة عميقة طويلة الأجل، متجددة البواعث تؤثر في نظرة الأوربي للاسلام، وللحياة الإسلامية، وللعالم الإسلامي. من اختلاف في العقيدة، إلى كراهية لهذا الدين وأهله، إلى ذكريات تاريخية مريرة في الأندلس وفي بيت المقدس وفي الأستانة

وفى سواها ، إلى صراع سياسى واقتصادى واستعمارى ، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية . . إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبداً . .

إذا نحن وضعنا فى الحساب ذلك كله — ولابد أن نضعه لنضع الأمور فى نصابها — وأضفنا إليه خطأ المنهج وخطأ الرؤية . . أمكن أن نقدر قيمة الدراسات الأوربية فى الحقل الإسلامى — وبخاصة فى التاريخ — قدرها الصحيح ، وأن نتحرز التحرز العلمى الواجب لا من قبول هذه الدراسات على علاتها ، بل من قبول المنهج الذى قامت عليه ، أو محاولة اتباعه فى دراساتنا الإسلامية على وجه خاص .

وإلى هنا نصل إلى منتصف الطريق فى بيان الفكرة التى ندعو إليها ، والمنهج الذى نشير به .

***

إن التاريخ الإسلامى يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر . .

إن هذا التاريخ موجود اليوم فى صورتين : صورته فى المصادر العربية القديمة ، وهذه من التجوز الشديد أن تسمى تاريخاً ، بل هى لا يمكن أن تحمل هذا الاسم . فهى نثار من الحوادث والوقائع والحكايات والأحاديث ، والنتف والملح ، والخرافات والأساطير ، والروايات المتضاربة ، والأقوال المتعارضة على كل حال . . وإن كانت بعد ذلك كله غنية كمصدر تاريخى بالمواد الخامة التى تسعف من يريد الدراسة ويوهب الصبر ، ويحاول الغربلة . . بالمواد الأولية اللازمة له فى بناء هيكل التاريخ .

وصورته فى المصادر الأوربية — وبخاصة فى أعمال المستشرقين — وهى الصورة التى تحدثنا من قبل عنها ، وألقينا عليها فى إجمال بعض الأضواء . وهى تعتمد فى جملتها على المصادر العربية القديمة . وهى على ترتيبها وتنسيقها تتسم بتلك السمات التى لا تطمئن الباحث الواعى إليها . وهى فى أحسن صورها دراسة من الظاهر للحياة الإسلامية — إذا صح هذا التعبير — وخير ما فيها هو الجهد فى جمع النصوص وتحريرها وتنسيقها والموازنة بين الروايات المختلفة من ناحية السند الخارجى ، لا من ناحية الإدراك الداخلى ؛ لأن هذا الإدراك هو الذى يحتاج إلى تلك الحاسة الناقصة فى شعور الغربيين تجاه الحياة الإسلامية كما أسلفنا ، فضلا عن الغرض فى كثير من الأحيان والهوى ، مما يخل بنزاهة الموازنة ، فضلا على فقد عنصر التجاوب الكامل مع المؤثرات جميعاً .

هنالك أجزاء لم تتم من صورة ثالثة للتاريخ الإسلامى — لم نشأ أن تعتبرها فى الفقرتين السابقتين ، لأنها — فضلا على كونها أجزاء معدودة — لاتزيد على أن تكون ظلالا باهتة أو كاملة للدراسات الأوربية ، حتى وهى تناقش أحيانا أو تعارض هذه الدراسات . فهى أولا تتبع المنهج الغربى فى صميمه دون زيادة ، وهى ثانياً تستمد عناصرها من الدراسات الغربية فى الغالب ، وهى ثالثاً متأثرة بالإيحاءات الغربية من ناحية زاوية الرؤية ؛ فهى لاتقف فى المركز الإسلامى لتطل على الحياة الإسلامية ، وإنما تقف فى مركز الحضارة الغربية لتطل منه على تلك الحياة ، لأنها ليست من القوة والإصالة بحيث تجد نفسها فى خضم الثقافات الغربية ، لتفهم الإسلام بعقلية أصيلة وعلى ضوء كذلك أصيل . والعقلية التى تحكم على الحياة الإسلامية ينبغى أن تكون فى صميمها إسلامية مشربة بالروح الإسلامى ، لكى تدرك العناصر الأساسية فى هذه الحياة ، وتحسها وتتجاوب معها ، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير .

يجب إذن أن تعاد كتابة التاريخ الإسلامى على أسس جديدة وبمنهج آخر . يجب أن ينظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة . لكى تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها ، وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

فى هذه الدراسة الجديدة يجب أن تكون المصادر العربية هى المرجع الأول ، والدراسات الغربية هى المرجع الثانى . على أن ينتفع من هذا المرجع الأخير ، بتحرير النصوص وتنسيقها ، وببعض الموازنات بين شتى الروايات من جهة السند . ولا شىء بعد ذلك أبدا . فبقية العمل يجب أن تكون ذاتية بحتة ، غير متأثرة إلا بمنطق الحوادث ذاتها ، بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام . وفى جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية . وهذه الحياة فى هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ إدراكه جميعاً ، لا لفهم تلك الحياة فحسب ، بل لإدراكها ككائن حى ، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع فى جسم هذا الكائن الحى .

وإنه ليعز على الباحث فى أية فترة من حياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقيا داخليا ، إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته ، وأن يعيش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها ، فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية ، وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى الحياة الإسلامية ، لأن مقومات هذه الحياة تختلف فى كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات الفترة الحاضرة وبخاصة فى العالم الأوربى .

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل تلك العقيدة؛ وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير عربى بوجه عام، ولا عند غير مسلم على وجه التخصيص، وهى الخصائص التى لا بد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامى.

إنه لابد من إدراك البواعث الحقيقة لتصرفات الناس فى خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث، والتطورات، والانقلابات. ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية — لا فى شكلها الخارجى وخطواتها العملية فحسب — ولكن فى تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية. وفى تصورها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع، ووسائل التنفيذ. الخ. وهى كلها من مقومات الحياة وبالتالى من مقومات التأريخ لهذه الحياة.

إن المعارك الحربية، والمعاهدات السياسية، والاحتكاكات الدولية.. وما إليها مما يعنى به التاريخ غالباً، أكثر من سواه.. إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ.. هذه العوامل التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها: كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره، أى لطريقة إدراكه للحياة فى عمومها. وللباحث المسلم مزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية؛ لأن طريقة إدراكه للحياة تمت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ. ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة.

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية والقيم الإنسانية الكامنة فيها، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة. وأن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية فى مهد الإسلام الأول وفى البلاد التى انساح فيها. فيضم إلى الجوانب الظاهرة التى لا يدرك الغربيون سواها فى الغالب كل الجوانب الروحية الخفية التى يعدها الإسلام واقعاً من الواقع، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان وتشكل الحياة فى كل زمان ومكان[1].

(١) تم بحمد الله تأليف جماعة من المسلمين الباحثين لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفق هذا المنهج وقد أخذت هذه الجماعة فى عملها فعلا. وستظهر أول حلقة من نشاطها بعد أشهر معدودة إن شاء الله

الفكر الاقتصادي الإسلامي

للدكتور محمد صالح

أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد وعميدها السابق

تتميز الحضارة الحديثة باتجاهها نحو المادية البحتة ، فقد أصبح المال كل شيء وصارت أقدار الناس تقوّم بالنقود ، وأصبحت الحياة هي الذهب حتى جرى على ألسنة الناس هذا المثل المشهور « الوقت من ذهب » وصارت الفضيلة لا ترغب لذاتها ، بل لأنها وسيلة لزيادة قوة الكسب ، والقدرة على جمع المال وفي هذا يقول المثل الانكليزى « الأمانة أحسن سياسة » وقد كان للمذاهب الاقتصادية تأثير كبير في صيرورة العالم إلى هذه المادية . وقد جرّ العالم إلى هذا المصير تباين المقاصد الاقتصادية عن الدين ، وأصبح مستقبل الإنسانية ينذر بالشر إن لم يقض على هذه المذاهب الاقتصادية . وقد أخذ المفكرون يدعون الناس إلى العودة إلى الفضائل الدينية التي رسمت الأسس التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية . لذلك يحلو لنا أن نبين موقف المفكر الاقتصادى الإسلامى إزاء هذه المشاكل الاقتصادية التي حار المفكرون في حلها .

لقد تناول المفكر الإسلامى فى شمول وتعمق شئون الاقتصاد أى جهود الناس التي يبذلونها لتحصيل معاشهم وزيادة رفاهيتهم ، كما درس علاقات الناس من ناحية الأخلاق . ولما كانت الحدود الفاصلة بين علوم الاقتصاد والأخلاق والقانون لا تبلغ فى دقتها شأن الفوارق القائمة بين العلوم الطبيعية كعلم النبات أو الحيوان . إذ لا بد فى العلوم الاقتصادية والأخلاقية والشرعية من مجال تتراوح فيه الحدود الفاصلة بينها . لذلك تناول الإسلام كافة هذه العلوم مجتمعة حتى لا تتباعد الوجهة الاقتصادية عن الوجهة الأخلاقية والشرعية ، وحتى يراعى الناس فى تحصيل معاشهم ما هو حلال وما هو حرام وما هو مكروه وما هو مندوب .

وإذا كان المنهج العلمى للدراسة يقتضى فصل العلوم الاجتماعية ودراسة كل علم منها على انفراد ، إلا أن دراسة علم الاقتصاد على حدة كان من عقباها أن افترض الاقتصاديون فى دراستهم الآن وجود إنسان تصورى أسموه « الإنسان الاقتصادى » وأن هذا الإنسان لا يعمل ولا يبذل أى نشاط اقتصادى إلا بباعث الأثرة وحب الذات ودافع المتعة .

وافترضوا أن هذا الإنسان الاقتصادى له نظير فى كل زمان ومكان ، ثم استبعدوا كل باعث آخر يفسد عليهم هذا الغرض . وقد أثارت هذه الطريقة فى معالجة الأمور الاقتصادية غضب الكثيرين من المشتغلين بالمسائل الاجتماعية حتى لقبوا علم الاقتصاد « العلم القاتم » .

وإذا كان باعث الأنانية أو حب الذات هو الملحوظ فى حياتنا المادية الحاضرة ، إلا أن علماء الإسلام قدروا البواعث الدينية والخلقية التى يخضع لها الإنسان فى حياته الاقتصادية . ومرد كل هذه البواعث إلى عقيدة أن الإنسان إنما ورد الدنيا ليتزود منها كمالاً يعرج به إلى عالم أرفع . ومن مقتضيات ذلك أن ينزع الإنسان إلى كسب المال من الوجهة المشروعة ، وأن يتنكب طرق الخيانة والكذب والحيلة ، وأن ينفق ما كسب فى الوجهة اللائقة وعلى الوجه الذى ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، لا يأتى منه باطلا ولا يقتل حقاً عاماً أو خاصا . وهذه العقيدة هى قوام الحياة الاقتصادية فإذا حرم جيل من النـــاس من هذه العقيدة ظهر فيه الشقاق والرشوة والاختلاس والشره وهضم حقوق الناس .

من أجل هذا امتزج الفكر الاقتصادى الإسلامى بالعقائد الدينية ودراستها فها هو الإمام محمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ وصاحب الإمام أبى حنيفة يضع كتاباً فى « الاكتساب فى الرزق المستطاب » يبين فيه أن طلب الكسب فرض على كل مسلم كما أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، واستدل على ذلك بما ورد فى السنة وماروى من الآثار ، وبحث فى التوكل وأنه لا ينافى الكسب والسعى ، وأن الكسب فيه معنى المعاونة على القرب من الله والطاعات وأن المكاسب كلها فى الإباحة سواء حتى فى الحرف الدينية خلافاً لمن زعم أن الحرف الدينية لا تباح إلا للضرورة ، وبين أنواع المكاسب وحصرها فى الإجارة والتجارة والزراعة والصناعة ، ثم تكلم عن الإسراف وحده وبيان الأشياء التى تعد من الإسراف فى المأكل والمشرب وتحدث فى إعانة الرجل أخاه ومن يجب عليه الإعانة .

وها هو حجة الإسلام الغزالى يضع كتاب « إحياء علوم الدين » فيبحث فى آداب الكسب والمعاش ، ويستشهد بالآيات القرآنية التى تحث على الكسب والعمل منها : « وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون» «وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

ويروى الأحاديث النبوية منها : « من الذنوب ذنوب لايكفرها إلا الهم فى طلب

للعيشة » « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » « ويبغض العبد يتعلم العلم ليتخذه مهنة » .
وروى كلمات عظماء المسلمين منها ماقاله عمر بن الخطاب : « لايقعد أحدكم فى طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » وما قاله أبو سليمان الدارانى : « ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ؛ ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد » ثم تحدث عن العدل واجتناب الظلم فى المعاملة ، ووضع الضابط الكلى فى المعاملة ، وهو أن لايحب لأخيه إلا مايحب لنفسه ، وفصل هذه القاعدة على الوجه الآتى : (١) أن لايثنى التاجر على السلعة بما ليس فيها (٢) أن لايكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً (٣) وأن لايكتم من وزنها ومقدارها شيئاً (٤) وأن لايكتم من سعرها ما لوعرف الناس لامتنعوا عنها ؛ إذ ليس للتاجر أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب السلعة ويخفى عن البائع غلاء السعر ، أوعن المشترى هبوط الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركا للعدل والنصح وبين الغزالى الإحسان فى المعاملة وأن الإحسان فى التجارة يجرى مجرى الربح . وروى ما كان من أمر التاجر محمد بن المنكدر ؛ فقد باع غلامه فى غيبته شقة من القماش بعشرة وكان الثمن خمسة ، فلما عرف التاجر ذلك لم يزل يطلب الأعرابى المشترى حتى وجده ، فقال له التاجر إن الغلام قد غلط فباعك مايساوى خمسة بعشرة ، فقال الأعرابى ياهذا قد رضيت ، فقال له التاجر وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلامانرضاه لأنفسنا ،فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليه خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فقال له الأعرابى أعطنى خمسة ،فرد عليه خمسةوانصرف الأعرابى وهو يقول : لا إله إلا الله : هذا الذى نستسقى به فى البوادى إذا قحطنا ! وجوّز الغزالى احتمال الغبن فى بعض الأحوال فالمشترى إذا اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئا من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسناً وداخلا فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء » أما إذا اشترى من تاجر غنى يطلب الربح زيادة عن حاجته فاحتمال الغبن منه ليس محموداً ،بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد وفى الحديث « المغبون فى الشراء لا محمود ولا مأجور » والكمال فى أن لا يُغبَن ولا يغبِن ، كما وصف بعضهم عمر « كان أكرم من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع » .

ووضع ابن خلدون مقدمته الشهيرة ، فبحث فى التجارة وماهيتها ونشوئها ، ومقومات الحياة الاقتصادية وإنتاج الثروة ، وصور النشاط الاقتصادى ، ونظرية القيمة والتوزيع ، والنقود ومفاسد التجارة .

ووضع المقريزى كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » بحث فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر إلى سنة ٨٠٨ هـ وتقصّى أسبابها واقترح العلاج الاقتصادى لها ، وتناول طبقات المجتمع المصرى فى عهده .

وفى هذا العصر وضع أحمد بن على الدلجى كتابا فى الفلاكة والمفلوكين : أى الفقر والفقراء بـيّن فيه وجوه المعايش كالتجارة والصناعة والزراعة ، والمساوىء الأخلاقية المترتبة على الفقر ومسئولية الفقير عن فقره .

وعنى الفكر الإسلامى بنظام الحسبة ، وهو نظام يقصد به حمل الناس قسراً على الفضيلة والقضاء على المنكرات الظاهرة ومحاربة الترف ، وقد تناوله الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » والإمام أحمد بن تيمية فى كتابه « الحسبة فى الإسلام [1] » .



الاعتـــدال

بين الجبن والتهور منزلة هى الشجاعة والإقدام ، وبين البخل والإسراف منزلة هى الكرم ، وبين العفو والانتقام منزلة هى العقوبة ، وبين العجز والجهل منزلة هى الحكمة ؛ فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند النظر فى الفروق بين مشتبه الفضائل والرذائل ، واعلم أنك لا تزال كريماً حتى تنفق مالك فى غير موضعه فإذا أنت مسرف ، وأنك لا تزال حليما حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول ، وأنك لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك فإذا أنت شجاع . وإن كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها ، أما إدراك الفروق بين مشتبهاتها عند ملابستها فتلك رتبة العقلاء الأذكياء .

« مصطفى لطفى المنفلوطى »

(١) للبحث بقية ، وموضوع مقالنا القادم « الفكر الاقتصادى الإسلامى وللملكية الفردية »

جوهر العبادة وآفاقها في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق السورية

العبادة فى نظر الإسلام وسيلة لتطهير النفس والعمل .

والناس إنما هم عباد الله وهو خالقهم وسيدهم وإليه مصيرهم ، فسمى التوجه منهم إليه بالمناجاة ، والتعظيم والإذعان باسم العبادة .

وفى جميع الأديان — حتى الأديان الوثنية — عبادات تختلف فى أشكالها وشرائطها وغاياتها :

فمن الأديان ما يجعل العبادة انقطاعا عن متع الدنيا وانعزالا وتزمتاً ، ومن الأديان ما يشترط للعبادة أماكن خاصة هى المعابد المخصصة فلا تصح العبادة إلا فيها ، ومن الأديان ما يجعل العبادة غير صحيحة إلا بقيادة فريق من الناس هم رجال الدين ؛ فليس للناس عندهم أن يمارسوا العبادات المفروضة عليهم بأنفسهم وفى أماكنهم دون أن يترأسهم أو يقودهم فيها رجال الدين ، وهكذا تختلف الديانات فى جوهر العبادة ومراسمها اختلافاً كبيراً وكثيراً .

أما الإسلام فإن نظريته تقوم على اعتبار أن أساس الحياة الصالحة هو صلاح العقل وصلاح النفس وصلاح العمل .

(ا) فالإسلام قد جعل الإيمان بالله الواحد المتصف بالكمال المطلق تطهيراً للعقل الإنسانى من درن الوثنية ، وتحريراً له من خرافاتها التى تردُّ العقل إلى خيال أو خبال . فإن الوثنية انحطاط العقل البشرى إلى دَرْك لا يليق بالإنسان ، وقد حارب الإسلام الوثنية فى شتى صورها ودرجاتها حتى الخفية التى قد تخفى على فريق من أهل الديانات الذين قد يقيمون على شبه وثنية وهم لا يظنونها ؛ حتى إن الإسلام لا يبيح للانسان أن يقف للصلاة وأمامه قبر ، ولا يجوز للانسان أن يحلف بغير الله تعالى ، وذلك إبعاداً عن الوثنية .

ولما رأى عمر رضى الله عنه أن الناس بدأوا يتبركون بالشجرة التى وقعت تحتها

بيعة الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام على الموت يوم الحديبية خاف عمر على عقيدة الناس في هذه الشجرة فقطعها ، وبذلك قطع الإسلام طريق الشبهة التي يتخبط فيها العقل البشرى فى عدم التمييز بين المخلوق والخالق ، وأخرجه من جو الوهم والخيال إلى محيط الحقائق .

(ب) والعبادة جعلها الإسلام طريقاً مؤدية إلى تطهير النفس والعمل من السيئات والآثام ، وأقام الإسلام العبادة على أسس كفيلة بهذا التطهير إذا حسنت ممارستها وحوفظ على جوهرها .

١ — فالإسلام أولا قد حرر العبادة من الوساطة بين العابد والمعبود ، وجعلها صلة مباشرة بين العبد وربه دون وساطة أحد .

فعلماء الدين فى شريعة الإسلام ليسوا وسطاء بين العبد وربه ، وليس عن طريقهم قبول العبادة أو رفضها ، بل هم وغيرهم سواء تجاه الله تعالى ، وإنما هم مكلفون بتعليم من لا يعلم وأن لا يكتموا العلم عن طالبيه ، فهم أكثر مسئولية أمام الله تعالى عن أنفسهم وعن غيرهم ممن لا يعلمون : أى أن علماء الدين فى الإسلام ليس لهم سلطة دينية تخولهم إياها الشريعة على غيرهم ، وإنما هم مرشدون . وأصل هذا قوله تعالى خطاباً لنبيه الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » وقوله تعالى « ليس لك من الأمر شىء » وقول النبى عليه الصلاة والسلام خطاباً لابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها : « يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

٢ — وكما حرر الإسلام العبادة من قيد الوساطة حررها أيضاً من قيد المكان ؛ فكل مكان يعتبر فى نظر الإسلام صالحاً للتعبد ، سواء أكان بيتاً أو برية أو سفينة فى عرض البحر ، أو مسجداً مخصصاً للعبادة ، فالإنسان يستطيع أن يتجه إلى ربه ويصل به قلبه بالعبادة فى كل مكان .

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام « جُعلت لِىَ الأرض مسجداً وطهوراً » .

٣ — والإسلام قد وسع كثيرا من مفهوم العبادة ؛ فليس التعبد فى نظر الإسلام مقصوراً على الصلوات والأذكار التى يقف فيها الإنسان موقف المناجاة والعبودية مع ربه ، بل إن كل عمل صالح يفعله الإنسان مخلصاً فيه امتثالا لأمر ربه وابتغاء لمرضاته هو عبادة يثاب فاعلها ثواب المتعبدين ، ولو كان ذلك العمل من مشتهيات الفاعل وحظوظه الحيوية .

فالأكل والشرب والنوم والنزهة البريئة وسائر الأعمال الحيوية التى تتطلبها طبيعة

الإنسان وله فيها حظ ولذة ، إذا فعلها الإنسان بنية دينية بأن ينوى أنه إنما يفعلها امتثالا لأمر الله تعالى فيما أباح له ، وسعياً فى كفاف نفسه بالحلال وإعفافها عن الحرام وتقوية جسمه بالأكل والنوم والرياضة والنزهة ، كى يصبح قادراً على القيام بالواجبات التى أوجبها عليه ، ويكون ذلك المؤمن القوى الذى يقول عنه النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فإن جميع هذه الأعمال الحيوية التى تنطوى على حظوظ النفس ومتعها تصبح عندئذ بهذه النية الصالحة عبادة

فيتقرب الإنسان إلى الله زلفى ، وهو فى بحبوحة حظه ومتعته لأنه قد توجه بنيته الصالحة فيها إلى الله تعالى وسخرها فى سبيل مرضاته ، فكان فى هذه الحظوظ والمتع طاعة وإذعان وتوجه إلى الله ، وهذا معنى العبادة .

فالإسلام لايحرم على الإنسان حظوظه الطبيعية ، وشهواته الغريزية ، بل ولا يجعل زهده فيها وإعراضه عنها أفضل من ممارستها ، وإنما يريد الإسلام من الإنسان أن يسلك بهذه الحظوظ والمتع سبيلا مباحة ومشروعة ، لا تجاوز فيها ولاعدوان على حقوق الناس ، أو على حدود الفضيلة ، أو على مصالح المجتمع .

والدين الإسلامى له فى هذا التوسيع لمعنى العبادة فلسفة ونظرة عميقتان ؛ فهو يريد من الإنسان أن يكون قلبه دائم الصلة بربه غير غافل عنه ، كثير المراقبة لنفسه ونزواتها حتى يجعل دنياه وسيلة لآخرته ، كما يقول القرآن العظيم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » . فإذا عرف أن حظوظه وملذاته يمكن أن تصبح عبادات بحسن النية ، وطيب الطوية ، كان ذلك عليه يسيرا ، لأن العبادة الدائمة لاتكلفه عندئذ حرمانه من الحظوظ وشقاوة الحياة ، وإنما يكفيه رأس مال لها النية الصالحة ومراقبة الله عز وجل كى يجعل هدفه — وهو فى متعته وحظوظه — طاعة لله وابتغاء رضاه ، فلاتطغى عليه شهواته ، فتنسيه ربه وتدفع به إلى الغرق فى لجة المفاسد مع كل فاسد . وعلى هذا أخبر النبى عليه الصلاة والسلام أن الإنسان يعد مأجوراً إذا رفع اللقمة إلى فم امرأته بنية إيناسها والإحسان إليها ، وتوطيد المودة الزوجية التى عناها الله تعالى بقوله فى القرآن العظيم « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة »

وعلى هذا الأساس أيضا صرح الفقهاء وعلماء الشريعة أن النية الصالحة تقلب العادة عبادة فمن الناس من يأكل ويتمتع ويكون أكله ومتعته عملية حيوانية طبيعية . لأنه لم يفكر حين فعله إلا فى إرواء غليله ، وإرضاء ميوله .

ومن الناس من يأكل ويتمتع أيضاً نظير الأول ويكون أكله ومتعته عبادة مأجورة

لأنه إنما فعل على نية الامتثال وتقوى الله فيما حلل وحرم ، والتقوِّى على القيام بما أوجب عليه .

والفارق بين الرجلين بهذه النية أن الأول تكون شهواته وحظوظه مزالق تنزلق به فى كثير من الأوقات إلى الحرمان لغفلته وعدم تفكيره إلا فى حظه ولذته ، بينما الثانى تكون نيته النبيلة وتفكيره السامى حاجزاً بينه وبين الانزلاق إلى الرذيلة ، ولا يمنعه ذلك من أن يتمتع بمتع الحياة ويستوفى حظوظها ، وإنما الفارق بينهما أن أحدهما مراقب لله والآخر غافل عنه ؛ وهذا ما جعل أحدهما فى متعته إنساناً متعبداً ، والآخر حيوانا راتعا كما يقول الله تعالى فى القرآن العظيم : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

فإذا كان الإنسان بحسن النية يستطيع أن يجعل متعته ولذته عبادة ، فما أخسر الغافلين ! ! ! إنهم يخسرون آخرتهم ، ولو أرادوا لكسبوها برأس مال يسير لا يحرمهم حظوظهم وملاذاتهم وهو النية المرافقة التى تحافظ على استقامة الاتجاه ، وتجعل قلب الإنسان مع الله .

هذه هى فلسفة الإسلام فى العبادة : يسر سبلها وسهل وسائلها وجعل عمادها صلاح النية ، فشملت جميع الأعمال الحيوية ورقيت بالنفس الإنسانية إلى مكانة رفيعة تليق بها دون أن تكبت غرائزها ، أو تمنعها لذائذها .

وإذا كان الإسلام قد وسع معنى العبادة فشمل به سائر الأعمال الحيوية التى تمارس بفكرة الامتثال والانقياد لأمر الله تعالى حتى استباحة المباحات والتمتع بالمتع ، فليس ذلك بمغن عن القيام بفرائض العبادات المفروضة من صيام وصلاة وحج وزكاة ، لأن هذه الفرائض فى نظر الإسلام هى المراكز الأساسية الثابته للاتصال بالله ، وأن نية الامتثال فى سائر الأعمال هى من الأمور الباطنة ، فلا يتميز بها من يتبع الدين عن سواه ، والدين ظاهر وباطن وليس باطناً فقط .

فمن الغرور والعجز والتضليل بالباطل ما يقوله المتساهلون فى فرائض العبادة ، إن الأساس طيب القلب وصلاح النية والعمل ، وليس الدين بالصلاة والصيام ، فهؤلاء يسيئون الفهم عمداً كسلا ، وفى طريقتهم هذه بترك الفرائض هدم لمعالم الدين ، فكل جاحد عندئذ يدعى أنه أعبد العابدين ؛ ولذا قال النبى عليه السلام : « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين » .

هذا وإن الإسلام بهذا التعميم فى معنى العبادة إنما يهدف بذلك إلى جعل الدين

والإيمان طريقاً عملياً لإصلاح الحياة البشرية ومجابهة الإنسان لمصاعبها بصبر كريم، وصدر حليم، وسعى للخير المشترك، ومكافحة للفساد.

ومن ثم كان الإسلام بهذه المبادىء محارباً للفلسفة الانهزامية الانعزالية التى سماها العلماء بالنسك الأعجمى، وهو النسك الخاطىء الذى يقوم على التزمت واجتناب وسائل الحياة واعتزال العمل وتهدل القوى، فذلك ليس من الإسلام فى شىء، بل هو انهزام فى معترك الحياة التى تحتاج إلى القوة والغنى والعمل، ذلك المعترك الذى يجب فيه حسن التوجيه حتى تصرف هذه القوى فى الخير العام؛ وهذا ما تكفل به الإسلام فى أسلوب العبادة التى تضمن هذا التوجيه بقدر الإمكان.

وقد روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها رأت رجلا خافتاً متماوتاً منحنياً من الضعف والناس ترمقه فسألت ما شأنه قالوا: هذا زاهد، فاستنكرت عائشة هذا النوع من الزهد وقالت: كان عمر بن الخطاب أزهد الناس، وكان إذا قال أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع.

افتقار... واستغناء...

قال عبد الله بن المقفع: ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم. وليكن افتقارك إليهم فى لين كلمتك لهم، وحسن بشرك بهم، ويكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك، وبقاء عزك.

مقدمات الجهاد

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

لقد وجب الجهاد . . .

وقد وجب علينا جميعاً ، كل من الناحية التي هو فيها .

وقد يكون الجهاد بالسلاح آخر النواحي التي وجب علينا الجهاد منها ، وأما أولها فهو أن نصلح ما بيننا وبين الله ، وأن نصلح ما بيننا وبين أنفسنا .

إن الجهاد عبادة ، وللعبادة في الإسلام مقدمات ، وأقدس مقدماته ثلاث : النية ، والطهارة ، والنظام .

كل واحد منا أصبح الآن في جهاد ، فالتاجر في حانوته — إذا عرف كيف يحسن النية — هو عند الله في جهاد ، وله مثل أجر المجاهدين .

والموظف وراء مكتبه — إذا عرف كيف يحسن النية — هو عند الله في جهاد ، وله مثل أجر المجاهدين .

والعامل في المصنع الذي يعمل فيه — إذا عرف كيف يحسن النية — هو عند الله في جهاد ، وله مثل أجر المجاهدين .

والذي يدير حركة المصنع بأمواله وتدبيره — إذا عرف كيف يحسن النية — هو عند الله في جهاد ، وله مثل أجر المجاهدين .

والذين يملك الواحد منهم ألف فدان من الأرض الزراعية فأكثر — إذا عرفوا كيف يحسنون النية — هم عند الله في جهاد ، ولهم مثل أجر المجاهدين .

(النية) أمرها عظيم في الإسلام، لأنها نجوى بين الإنسان وربه ، فهي كإبرة الملاح إذا أراد أن يتوجه بسفينته إلى جهة يقصدها لا يغالط نفسه فيتوجه إلى غير ما توجهه إليه إبرته المغناطيسية . وما دام الجهاد عبادة ، فكما يتوجه المصلي نحو القبلة وهو ينوي الصلاة ، فعلى المجاهد أن يتوجه إلى مرضاة الله وهو يلتمس منه المعونة ويستنزل من عنده رغائب النصر ووسائل التوفيق .

والتماس مرضاة الله ركن (الطهارة) للمتعبد بالجهاد . والله لا يرضيه من التاجر وهو يرى بلاده فى حالة جهاد مع عدو مخاتل قوى غدار ، أن يلوث طهارة جهاده بمحاولة الغدر والختل للحصول على الكسب الحرام ، وإلا فسدت نيته التى ناجى بها الله ليثيبه مثل أجر المجاهدين ، وكان بما حاوله من الختل والغدر ليحصل من مواطنيه وبنى ملته على الكسب الحرام شريكا للعدو الذى يحاربنا بختله وغدره ، ويا بؤس أمة تقف موقف الجهاد من عدو مخاتل غدار ويكون فى صفه تجار من أبناء هذه الأمة يحاربونها مع العدو بسلاح الغدر والختل .

والموظف الذى يأخذ فى آخر الشهر أجر عمله من الضرائب التى يؤديها أفراد الشعب من عرق جباههم ، يأخذ أجره حلالا ويكون مايتغذى به أهله من هذا المال هنيئاً مريئاً ، إذا كانت نجواه بينه وبين ربه صادقة فى تأييده لجهاد أمته ، والتماسه من الله مثل ثواب المجاهدين . وأول علامات ذلك تسهيله أعمال مواطنيه وتيسيره وصول الحقوق إلى أربابها ، أما إذا عرقل مصالح أصحاب المصالح من أمته ليحصل منهم على شىء من الكسب الحرام فإنه يكون كاذباً على الله فيما زعمه فى نجواه بينه وبين ربه من أنه مؤيد لجهاد أمته للخلاص من العدو القوى الغدار المخاتل ، بل يكون هو نفسه من أعداء الأمة الغدارين المخاتلين ، والغذاء الذى يقدمه لأولاده من المال الحرام يسرى فى شرايينهم يحموماً وغسليناً ثم يكون وقوداً لنار جهنم .

والعامل الذى يعمل فى المصنع ليسهم فى الحياة الاقتصادية لوطن يجاهد للخلاص من عدو قوى غدار مخاتل ، سيجعل الله مايتناوله من أجر على عمله هنيئاً مريئاً له ولذويه فى بيته ماأخلص العمل لمصنعه ولأمته فى حياتها الاقتصادية ، وسيحشره الله فى زمرة المجاهدين حتى لو لم يُدْعَ لحمل السلاح ، لأنه فى الواقع يجاهد فى سبيل سعادة وطنه وتنمية ثروة أمته وإغنائها عن الحاجة إلى الأجنبى . أما إذا سرق من الوقت الذى يتناول أجره على العمل فيه ، وإذا تهاون فى عمله فأخرجه ضعيفاً تافهاً وفى إمكانه أن يخرجه أجود وأفضل ، فإنه يكون حينئذ شريكاً للعدو فى الغدر بهذه الأمة والختل فى حقوقها ، ويحشره الله مع الغادرين المخاتلين .

والذين يديرون حركة المصانع بأموالهم وتدبيرهم يستطيعون إذا أحسنوا النية فى نجواهم مع الله أن يكونوا فى طليعة المجاهدين فى سبيله ، ويوشك إذا كانت نيتهم هزيلة وضيقة النطاق بحيث لاتتجاوز حدود أنانياتهم وجشعهم أن يكونوا بذلك فى زمرة الأعداء الذين يعتمدون على قوتهم المادية ليغتالوا من الأمة حقها ويستبدوا

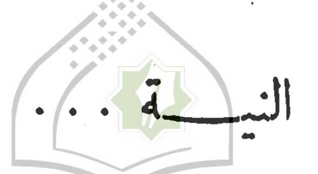
بمصالحها مدفوعين إلى ذلك بأنانيتهم وجشعهم ، ويا ويل من يرضى لنفسه بأن يكون من أمته بمنزلة أعدائها ، ومن كان فى إمكانه أن يكون فى طليعة المجاهدين الذين يحسنون إلى أنفسهم بصالح العمل ، فيعكس الآية ، ويكفر نعمة الله عليه ، ويجعل أمواله قوة على أمته وكان يجب أن تكون قوة لها .

أما مواطنونا وأعياننا الذين ملكهم الله ما استخلفهم عليه من واسع الأرضين ، وشاسع الحقول والمزارع والبساتين ، فإن الله عز وجل قد أتاح لهم اليوم أعظم الفرص ليقيموا لأنفسهم ولبيوتهم معالم المجد وخالد الذكر بتيسير العيش على أمة وطنت نفسها على الدخول فى غمار جهاد طويل لن ترجع عنه مهما تجشمت فى سبيله وتحملت من أذاه . وإن النصر يلتمسه طالبوه بالتراحم فيما بينهم ، وبالإيثار الذى توارثته هذه الأمة جيلا بعد جيل عن الجيل الذى تعلّم الخير من معلم الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تحدثت الصحف عن نية الحكومة فى تخفيض إيجار الاراضى الزراعية لتنخفض بذلك أسعار محاصيلها وهى قوت الشعب وعصب الجهاد ، فتهون المعيشة على أمة تتقدم بمجموعها لخوض غمرات أعظم جهاد عرفته مصر من ألف سنة ، لانه جهاد أمة ستكون كلها جيشاً واحداً يتحول إلى سيوف من سيوف الله تتم بها معجزة أخرى من معجزات الله التى يتمها الله على أيدى هذه الامة بين كل فترة وفترة من فترات الدهر . والأمل فى أصحاب هذه الأراضى — ولاسيما أصحاب الأرقام الكبيرة منها لأن الناس لهم تبع — أن يسبقوا الحكومة فلا يحوجوها — تحت ضغط الرأى العام — إلى سن قانون لذلك فيحرموا من ثواب الرضا بهذا التخفيض حسبة لله فيما يحبه ، وتضامناً مع الأمة فى جهادها المنتظر ، وتراحماً بين الطبقات استدراراً لرحمة الله واستمطاراً للنصر من عنده . إن تخفيض أجور الأراضى الزراعية ولو إلى ضعف ما كانت عليه قبل الحرب — إن لم نقل مثل ما كانت عليه قبل الحرب — هو سلاح معنوى تتسلح به هذه الأمة التى قطع عليها اللصوص طريق استيراد الأسلحة المادية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وإذا انتعشت الأمة بهذا السلاح المعنوى فإن رجالها ونساءها سيتحولون إلى أسود فى أجمة يقفون فى وجوه أعدائهم بالروح العالية التى كان يشعر بها المسلمون الأولون يوم مشت كتائبهم لتقويض دواتى كسرى وقيصر ، وبهذا التراحم تستطيع مصر أن ترغم عدوها ، وأن تقوض دعائم الاستعمار لا فى وادى النيل وحده ، بل فى شمال إفريقية إلى آخر الطريق الذى اجتازه عقبة بن عامر فاتحاً ظافراً .

هذه هى (الطهارة) التى يشترطها الإسلام لنوع من عباداته يسميه (الجهاد) . والمجاهد الصادق مغفور له كل شىء إلا حقوق العباد ، فإن الله لا يغفر لأحد أن يغمط شيئا من حقوق عباده .

والشرط الثالث بعد النية والطهارة هو (النظام) الذى تعلمناه من (تسوية الصفوف) فى الصلاة ، لنطبقه فى (تسوية الصفوف) للجهاد .

فإذا أحسنا (النية) فى النجوى بيننا وبين الله ، وإذا (تطهرنا) من الأنانية والختل والغدر ، وكنا أمة متعاونة متراحمة ، وإذا سوينا الصفوف وقام كل منا بالجهاد من ناحيته حيثما كان ، فإن الإسلام يضمن لأبنائه أن يكونوا اليوم منصورين ظافرين ، كما كانوا فى الأمس منصورين ظافرين « إن تنصروا الله ينصركم » .



النيـــة . . .

. . . وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتى الخير فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه ليحقق ضميره الطيب فى كل ما يهمُّ به ويحصر أفكاره فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساس فى علم الأخلاق ، لا أساس من دونه .

والنية من بعد هى حارس العمل ، فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية ، واستجابة ومطاوعة من الناحية الأخرى ، فهى على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للارادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانون المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة ، فالتزور والتلبيسُ كلاهما سهل ميسور فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلصت .

وهى كذلك ضابط للفضائل توجه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف ، فيكون طريق ما بين الإنسان والإنسان من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله .

« مصطفى صادق الرافعى »

الإسلام: حرية وإنسانية

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

نحن فى بداية عام جديد من أعوام هذا الزمن الذى لا تعرف له بداية أو نهاية ، وقد أظلنا الشهر الذى ولد فيه رسول الإسلام الخالد على الدهر وأحداثه ، والحكماء ، فى الإسلام وقبل الإسلام ، قد دأبو على النصيحة بأن يحاسب المرء نفسه فى نهاية كل يوم وشهر وعام ؛ وهذا ليفرح بما يكون قد قدّم من خير ، ويندم على ما قد يكون اجترح من شر ، وليحاول أن يجعل نفسه فى غده خيراً منه فى أمسه .

وفى المسلمين ، بحمد الله ، كثيرون يغبطون أنفسهم حين يقومون بهذا الحساب ، وهم الذين من أجلهم نعيش بخير ونعمة من الله . وفى المسلمين ، بكل أسف ، كثير أيضاً حريون إن قاموا بهذا الحساب ألا تذوق أعينهم النوم لهول ما هم عليه من سوء . وحسبنا أن نذكر أن من هؤلاء من فقد فى نفسه الطابع المميز للاسلام وهو التوحيد الحق والحرية الحقة ، وهذان اللفظان يعبران فى رأينا إلى حد كبير عن مفهوم واحد ، وهو تحقيق معنى الإنسانية فى الإنسان ، وتحرير نفسه من عبادة غير الله ، سواء كان هذا « الغير » أصناماً من حجر أو من لحم ودم .

***

لقد جاء الإسلام والعالم قد انقطع عن الحق وضـل عن سواء السبيل . فاليهود والنصارى ، إلا القلة القليلة التى بقيت على دين إبراهيم ، قد « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم » . وفى فارس ، رأينا الأكاسرة ، وقد رأوا أنه لا أمر فوق أمرهم ، صاروا يعدون أنفسهم أشبه بالآلهة فى السلطان والجبروت . كما رأينا ثنوية « مانى » التى كانت تقول بإله للخير وآخر للشر ، وإباحية « مزدك » الشيوعى التى ما كان يمكن أن يقوم على أساسها مجتمع صالح . وفى الروم كان الأمر شبيهاً بما كان عند فارس من جبروت السادة وعسف الأقوياء بالضعفاء حتى ليتخذونهم خولا وأنعاما وعبيداً لهم . هذا ، إلى جدل فارغ عنيف فى مسائل الدين ، وسفسطة

مذهبية جلبتها الروح الإغريقية إلى اللاهوت المسيحى ، وكان من ذلك أن تزعزت أصول العقيدة الدينية ذاتها .

هكذا كان الحال فى فارس والروم ، وفى الأقاليم التى كانت اليهودية والمسيحية منتشرة فيها . ولم يكن الحال بأفضل من ذلك فى بلاد العرب ، سواء فى الناحية الدينية أو الاجتماعية . ففى المجتمع ، كانت الفرقة الشاملة نتيجة للروح العقلية التى كانت تسودهم ، وامتهان الإنسانية الذى يتمثل فى وأد البنات واسترقاق الأسير . وفى ناحية الدين ، كان حمق الرأى وضلال العقل والفكر ، حتى كانوا يعبدون ما ينحتون من تماثيل ، ويتخذون أرباباً ما يصنعون من أوثان وأصنام . وقد وصل بهم الأمر فى هذه الناحية إلى ما يقول ابن إسحق فى سيرته : « واتخذ أهل كل دار صنما يعبدونه ؛ فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله [1] » ولقد كان الرجل ، كما يقول الكلبىّ فى كتاب الأصنام [2] : « إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل الثلاثة الباقية أثافىّ لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، وإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك » ! أى سخرية بالعقل . وضلالة فى الفكر ، أكبر من هذا الصنيع ! !

كان العالم إذاً ، شرقيه وغربيه ، بحاجة إلى دين جديد ، ولولا هذه الحاجة الملحة ما اتصلت السماء بالأرض لتوحى إليها بهذا الدين الجديد ورسالته ، وهو الإسلام ؛ فإن هذا الاتصال ، وهو خرق لقوانين الطبيعة ، لا يكون إلا حين تدعو الحاجة العاجلة والضرورة المطلقة .

كذلك كان الأمر حين ظهر الإسلام ، وجاء وحى السماء بدين جديد يوائم الإنسانية حين بلغت رشدها ، وبعد أن استنفدت كلٌّ من اليهودية والمسيحية أغراضها ، ويوائم دائماً العالم فى كل ما يمر به من مراحل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان من هذا — كما يقول المؤرخ الإيطالى الأشهر « كينانى » ، فى كتابه « حوليات الإسلام » ج ٢ : ١٠٤٦ — أنه « لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية — التى اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية وتزعزت عقائدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس

---

(١) سيرة ابن هشام . طبعة مصطفى محمد . ج ١ : ٨٦ — ٨٧ .

(٢) طبعة دار الكتب ، ص ٣٣ .

والقنوط من هذه الريب — قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل ، وحينئذ ترك الشرق المسيح ، وارتمى فى أحضان نبى العرب » ، ولا عجب ! فقد « منح الإســلام العبد رجاء ، والإنسانية إخاء ، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية » . كما يقول « تيلور — Taylor » أحد الكتاب الإنجليز المعروفين [١] .

ومن الحق أن نذكر هنا أن نجاح المسلمين الأوائل فى دعوتهم وفتوحاتهم ، قد اتخذه المسيحيون وغيرهم من خصومهم دليـــلا على صدق دينهم ، وأنه حقاً رسالة من الله يؤيدها بعونه لصالح العالم كله . كما أنه كان لأخلاق القائمين على هذا الدين ودولته الفتية أثر كبير فى هذا السبيل . ولسنا نقف ، فى الاستشهاد على هذا ، عند رجالات الإسلام وأمرائه الأولين ، بل نتعدى تلك العصور إلى عصر متأخر مثل العصر الذى ظهر فيه البطل العظيم صلاح الدين الأيوبى ، وهنا نترك السير توماس أرنولد نفسه ، صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام ، يحدثنا عن هذا ، وكفى الإسلام شاهداً من غير أهله ! إنه يقول : « ويظهر إن أخلاق صلاح الدين ، وحيـــاته التى انطوت على البطولة ، وقد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عنـدما طرح النصرانية مثلا ، فارس إنجليزى من فرسان المعبـــد ، يدعى « روبرت سان ألبانس » (Robert of S.T .Albans) فى سنة ١١٨٥ م ، واعتنق الإسـلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صـلاح الدين . وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسـطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حطين ، وكان « جوى — Guy » ملك بيت المقدس بين الأسرى ، وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه ، وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم [٢] » .

* * *

(١) كتاب الدعوة إلى الإســلام ، تأليف السير توماس أرنولد ، وترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين ، نشر مكتبة النهضة ، ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٨٢ — ٨٣ .

والآن ، بعد هذه الإلماعة إلى حال العالم قبيل الإســلام ، والأسباب التى اقتضت ظهوره ، والعوامل التى عملت على انتشاره ، وما كان لأخلاق القائمين به وعليه من أثر كبير فى الأمجاد التى حصل عليها — الآن بعد هذا ، علينا أن نبين ما ذكرناه أول الحديث ، وهو أن الإســلام هو دين الحرية واحترام ما فى الإنسان من إنسانية ، وهذا مالا يبعد بحال ما عما اعتدنا تقريره من أن الإســلام هو دين التــوحيد .

جاء فى لسان العرب : الحر من الناس أخيارهم وأفاضلهم . ويقال : هو من حرية قومه : أى من خالصهم .

ويقول « أوجست كونت » الفيلسـوف الاجتماعى المعروف » : « أحسن ما يكون لنا من حرية ، هو أن نعمل بقدر استطاعتنا فى ســيادة الميول الطيبة على السيئة » .

ويرى « هيمون (Hemon) » أن الحرية هى سيطرة المرء على نفسه ، وذلك بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى .

ويقرر « إبيكتيت » الفيلسوف الرواقى المعروف ، أن على من يريد أن يكون حراً ألا يرجو أو يخاف شــيئاً يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقاً .

ونعلم ، بجانب هذا وذاك كله ، أن الحرية تشمل فيما تشمل أيضاً تحرر العقل من الضلالات والتقاليد الباطلة ، كما تشــمل حرية العقيدة والفكر والإرادة والعمل ، ما دام ذلك لا يضر بالغير ولا بالصالح العام .

تلك هى المعانى الجديرة بالذكر لكلمة « حــرية » فى التفكير الشرقى والغربى . والإسلام قد جاء بتقرير هذه الحرية على كافة ضروبها وألوانها . إنه أقام الحرب العوان على عبادة الأوثان والأصــنام حتى تكون العبادة لله وحده ، ودعا بقوة إلى نبذ ما كان عليه الآباء والأسلاف من ضلالات وتقاليد ليست من الحق فى شىء ، وبعد هذا نراه يلفتنا بقوة إلى أنه ليس من العقل أن يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، أو أن يســتذل القوى منا الضعيف ، وفى هذا نرى الفاروق رضوان الله عليه يقول قولته التى لا تزال تجلجل أبد الدهر : لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! ؟

ثم بعد هذا وذاك ، نجد الإســلام ينعى بشدة على من اتخذ إلهه هواه ،

وجعل شهواته تسيطر على أكرم جزء منه وهو العقل ، ذلك بأن الحرية الحقة هى حرية المرء لا يستعبده هواه وغرائزه وشهواته ، فلا ينزل فيما يأتى ويقرر إلا على حكم عقله الرشيد .

ومن احتفال الإسلام بالحرية لكل مخلوق ، نراه لا يجعل بين الله وعباده وسطاء من خلقه يحللون له ويحرمون ، كما نرى الأمر فى المسيحية ، بل جعل لكل من الخلائق أن يتصل بالخالق — جل وعلا — بنفسه ، ويناجيه ويدعوه ويستغفره ليحله بفضله من ذنوبه إن تاب .

ومن عناية الإسلام بالحرية وقدرها قدرها ، نرى الفقهاء المشرعين يقررون أنه إذا وجد طفل بين نصرانى يدّعى أنه ابنه ، ومسلم يدعى أنه عبده ، يقضى به للنصرانى ليكون حراً ، وبعد هذا قد يصل للاسلام بنفسه متى كبر وعقل الدلائل على وجود الله وبعثة رسوله المصطفى بالإسلام أكمل الأديان .

ويتصل بهذا ، ما يراه الإمام الأعظم أبو حنيفة من أنه لا يجوز الحجر على السفيه حفظا لماله من الضياع . ذلك بأنه يرى أن الحجر وإن كان وسيلة لحفظ المال على المحجور عليه ، إلا أن فيه امتهانا لإنسانيته ، وفضل « الإنسانية » على المال معروف غير منكور . ولا يمنعنا هذا التعليل من جانب أبى حنيفة للرأى الذى يرى ، من أن نقول إنه قد يكون هناك تعليل آخر اقتصادى . إن المال بطبيعته غاد ورائح ، وإن عمارة العالم فى أن ينتقل المال من يد إلى يد حتى لا يكون دُولة بين أناس بأعيانهم يظلون دائماً أغنياء ويظل غيرهم دائما فقراء .

ليس المهم فى نظرنا أن يكون الإمام أبو حنيفة قد أدرك هذا المعنى الثانى ، أو لم يدركه ، فى تحريمه الحجر على السفيه ، ولكن المهم بيان الملحظ الأول من وجوب اعتبار « الإنسانية » وعدم امتهانها فى أى إنسان . وفى عدم الحجر على السفيه — احتراماً لما فيه من « إنسانية » — تحقيق لدوام تمتعه بالحرية التى يحرص الإسلام عليها حرصاً شديداً كما رأينا . وهل أدل على هذا بجانب ما تقدم ، من أن القرآن يقول فى سورة البقرة : « لا إكراه فى الدين » كما يقول فى سورة يونس : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » !

* * *

وبعد ! أين نحن فى هذه الأيام من هذا الذى هو الطابع المميز للاسلام ؟ نعنى التحرر من عبادة الأصنام الآدمية ، والتحرى من الهوى والشهوات ، والتحرر من التقاليد البالية التى لا سند لها إلا الإلف والعادة ومرور الزمن ؟

رباه ! ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أحوجنا اليوم إلى العودة إلى الإسلام من جديد ! فالإيمان بالله وحده لا نكاد نجده فى كثير منا ما دمنا نشرك معه السادة والكبراء ، فنرجوهم ونخشاهم كخشية الله أو أشد خشية ! وبهذا قامت بيننا ، بدل عبادة الأصنام من حجر ، عبادة أصنام محدثة من لحم ودم ، ثم حرية المرء فى نفسه ، بسيطرة العقل على الهوى ، فقدناها إلى حد كبير ، إذ تركنا القياد إلى الشهوات ، وصار الهوى هو الإله المعبود !

متى يارب نتحرر من هذه الأدواء ؟ ومتى نعود أحراراً فلا نعبد إلا الله وحده ، ولا نرجو ولا نخشى غيره ؟ ومتى نتحرر من أهوائنا وشهواتنا الجامحة ، فلا نخضع لغير حكم العقل السديد ؟ نرجو أن نأخذ فى الأسباب ، وأن يكون هذا قريبا . والله المستعان ؟

من الأدب النبوى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبُوا ، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزَنَ عليكم » .

خاطرة :

عـــزلة !!

« ليست عزلة يفر بها الرجل من سائر الناس ، ولكنها العزلة التي يفر بها إلى فكرته يستلهمها ، وإلى من آمن إيمانه لا تعدو عيناه عنهم »

« . . . تحرك الليلة فى نفسى خاطر شديد وهو أن (العزلة) إلى حد كبير لا مفر منها لأولئك الذين يحملون كلمة الله فى هذا العصر الداعر . . . لا مفر منها على الأقل فى المرحلة الأولى : مرحلة الصهر والتكوين . . . مرحلة التصفية والتنظيف . ولا أظن دعوة تناولت أخلاق الناس بالتغيير إلا وتميزت بهذه العزلة ، حتى يكون اندفاعها الأول من مركز واحد لا تتجاذبها عنده الأعاصير . . إن الدفعة الأولى هى التى تقر جذور مجد الدعوة المأمول . . فإذا سبق كائن غريب إلى أحد الجذور فقد اتخذ به الشيطان لنفسه متكأً فى الأعماق . . . واستطاع أن ينفث منه سمومه فى الفروع والثمر . . . قد تكبر الشجرة وتورق ، ويكون منها بعض ظل يفىء له عابرو السبيل ممن لا يعنيهم أنواع الشجر . . ولكن ثمرها يبقى مدخول الكيف والمذاق مغلوباً على أمره من هذا القابع فى الأعماق يرقب الرائح والغادى يدس فيهما طعمه ورائحته .

وقد يجد هذا الكائن غذاءه الدسم من الطبيعة المفتوحة ، المليئة بالخير والشر والحلو والمر . . فيرسل لعابه فيما حوله . . ويأكل الجذور التى أنست إليه ولم تعد مع الأيام تستغرب طعمه ورائحته . . فإذا بالشجرة تميل مع الريح ، وما أكثر الرياح ، وتسترخى إلى الأرض ، وما أكثر ما أكلت الأرض غيرها من الشجر . . ثم تنهار ساقطة وقد كانت بالأمس الذى ولى تملأ البصر . . ألا إنه لا يفسر قول الله عز وجل « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » . . إلا قوله تباركت حكمته « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته » .

***

هذه العزلة نوع من الفطام . . فيه قسوة الفطام ، ولكن فيه كذلك إعداد الطفل للحياة . . لو استشير الطفل قبل فطامه لتململ ورفض . . ولهذا كانت حاجة الدعوات إلى مربين فيهم قسوة الأم حين تفطم وليدها . . إنها قسوة فى فهمه وحده . . ولن يدرك أنها كانت لخيره وبراً به وبعض واجب الأم نحوه إلا حين يستوى على سوقه . .

أيها المربون : عليكم بعزمة الأم حين تفطم . . ولا تبالوا بفهم الطفل إذا تململ . . وقولوا للذى ثقل عليه الثبات فى الصف . . واضطربت مع الأهواء عيناه : ذلك أمر الله « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة » .

المسلمون ميزان!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل ما فى الأرض الآن يدعو المسلمين ويهيب بهم أن ينهضوا ليؤدوا دورهم الثانى فى قيادة البشرية كما أدوا دورهم الأول ...

وقد رشحهم لهذه المكانة أنهم أمة وسط بحكم شريعتهم وموقعهم الجغرافى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . فعندهم من هذه الآفاق جميعا أضواء وألوان قد أُحكم مزجها وأُتقن إخراجها فى أخلاقهم وطباعهم وعقليتهم فى غير تفريط ولا إفراط . وقد رشحهم كذلك أنهم مكثوا دهراً طويلا مستضعفين سلبيين ليس لهم فى تصريف شئون العالم يد ولا جهد ، فظلّوا يرصدون أغلاط غيرهم من الأقوياء الغاشمين وأعمالهم بعيون الناقدين حتى خلص لهم قدر صالح من الأحكام التى يغلب عليها الاتزان وعدم التحيز والتعصب لجنس ورأى ، وقد ذاقوا مرارة أغلاط الغاشمين وآثامهم وآلوا على أنفسهم أن يطهروا الأرض منها . وهذا هو ما يجعلهم الحكام الذين تُرضى حكومتهم فى الفصل بين المذاهب والآراء التى تموج وتختلط فى العقول والأذهان. ونرى تصديقاً لهذا الرأى فى وضع المسلمين أنهم لم يرضوا الانحياز إلى أفكار كل من المعسكرين المتقابلين فى الشرق والغرب، ولم يأخذوا دعاوى كليهما على علاتها بعُجرها وبُجرها كما يقال، بل ينقدون هؤلاء وهؤلاء نقد البصير الذى عنده ذخيرة من الآراء هى فى يده بمثابة « الصنج » والمثاقيل التى توضع فى الموازين لتقاس بها رجاحة الموزون ؛ فلم تأخذهم الحماسة لآراء الشرقيين أو الغربيين ، بل قالوا لهؤلاء وهؤلاء : على رسلكم ! هناك طريق وسط لجميع الحسنيات مما عندكم وعند غيركم ، ولا يغفل حقيقة من حقائق النفس والوجود والاجتماع ، التى عاشت بها البشرية وسعدت فى ماضى الأزمان ومراحل التاريخ . ولا يريد أن يرتد بالإنسان إلى أوضاع الحيوان المحدود المطالب بالمأكل والمرعى والمتاع الغليظ المقيد بقيود الجسد ، كما لا يريده أن يسلخ الإنسان من حياة الأرض ليحمله إلى آفاق بعيدة المدى عن الحاجات والارتفاقات التى بها قوام الحياة بالجسد .

نعم أدرك المسلمون المعاصرون وضعهم الحقيقى ، ووصفهم الصحيح الذى وصفهم به

القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس» ولعل زمناً من الأزمان لم يتضح فيه ما يرمى إليه هذا الوصف للمسلمين كهذا الزمن الذى انقسم العالم فيه إلى كتلتين تزعم كل منهما لنفسها وعلى غيرها مزاعم ليس لها إلى الحق سلطان .

وعرف المسلمون حقيقة أنهم شهداء على الناس ، فأخذوا يتنادون بالدعوة إلى قيام كتلة ثالثة تكون ميزان القوى وصمام الأمن من احتكاك الكتلتين المتطرفتين .

ولو أن القائمين على أمور المسلمين يدركون ما فى أصول النظم الإسلامية من حلول موفقة لمشكلات العالم الحالية لجعلوا وُكدهم وأخلصوا سعيهم للتعجيل بقيام هذه الكتلة وتماسكها قبل استفحال الخطوب ، وإقبال الكروب المنتظرة من اصطدام المعسكرين ولأحسوا تبعاتهم ومسئولياتهم فى إنقاذ العالم ، ولم يقعدهم عن هذا السعى أنهم مستضعفون ليس لهم فى حلبة السياسة العالمية قوة ولا فى زعامتها رجل . . . فإن الضعف السامى كثيراً ماأثر فى مجرى الحياة مالم تؤثره القوى السافلة ، وقديماً أثر اليونان فى الرومان وهم مغلوبون لهم ، وأثر المسيحيون المستضعفون فى الرومان الجبابرة ؛ وأثر المسلمون المقهورون فى التتار القاهرين حتى حولوهم إلى معسكرهم فصاروا من خيار أجنادهم . .

ولهذا المعنى يعلن الله تعالى إرادته فى الإدالة للضعف السامى من القوة الغاشمة دائماً ، ويجعل ذلك قانونا من قوانين الحياة فيقول: «ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الورثين» ذلك لأن القوة الغاشمة دائماً تحمل أربابها على الطغيان والبطش ونسيان الأوضاع التى خلق الله تعالى الحياة على معاييرها،حتى لتحمل على نسيان يد الله والعمى عن رؤيتها ، بل تحمل على محاربتها والجرأة عليها .. وعندما يصل مدُّ الطغيان إلى غايته هذه ، يمكر الله به ويديل منه « ولله جنود السموات والأرض ».

أما الضعف السامى فيجعل المستضعفين محل الانفعال بالحوادث وتلقيها بتذوق كامل لها ، وإدراك حقيقى لآثارها . وهذا الانفعال والتذوق والإدراك الحقيقى للأمور ، هو العوامل التى تنتج صحة الأحكام ؛ ولذلك كان المستضعفون ذوو العقائد الصالحة أصح من الأقوياء المتسلطين الغاشمين رأيا وأسلم قلوباً وأعرف بشئون الخلافة على الأرض ، ووراثة مقاليدها . ومن هنا ينفذون إلى السلطة والإدالة من الطغاة بعون الله وحسن إعدادهم لنفوسهم ؛ فعلى هذا ينبغى للمسلمين المستضعفين أن ينفذوا إلى أعدائهم من ثغرات ضعفهم التى هى فى الوقت نفسه مظاهر كبرياء هؤلاء الأعداء المتكبرين ، وأن يحملوهم بمختلف الوسائل على رؤية ما عندهم من الحقائق والآراء الصالحة .

وأولى هذه الوسائل أن يمثل المسلمون حقائق الإسلام ومعانيه فى سلوكهم وتصرفاتهم وشرائع حياتهم، حتى يكونوا إعلاناً مجسماً لما يدعون الناس إليه.

وهذا التمثيل كـكل تمثيل يحتاج إلى « مخرجين » يتقنون فن إخراج الشعوب وتربيتها، وعرض معالم شريعتها وأخلاقها وعزائم جهودها عرضاً جميلاً أخـّاذاً فى عصر كل ما فيه قائم على فن الإعلان . . .

ولعل الله الـكريم الذى بيده مقاليد الأمور، وعنده مفاتح الغيب يكون قد خبأ للعالم الجديد فى هذه الأمة الوسط مطلعاً من مطالع الحق والعدل الذى تنشده البشرية وتسعى فى سبيله، وتتطلع إلى الآفاق بحثاً عنه « وما كان الله ليضيع إيمانـكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ».



مستقبل الإسلام

« . . . هذا وإن رأينا الذى نعوّل عليه أولا وآخراً، ونرجع إليه باطناً وظاهراً، أن الشرق أجمع سيتنبه من رقدته وينهض من كبوته، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسيا بعروتها وزرّها، وأنه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الإسلام بلاده ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده. ليس هناك كهانة ولا عرافة، ولا هى مقاصد تدرج بالرُقى والعيافة، ولـكن يعرف المستقبل من الحاضر، ويدل الأول على الآخر ».

« شكيب أرسلان »

توجيه المعارف في البلاد الإسلامية

لسماحة السيد أبي الحسن الندوي

وكيل ندوة العلماء بالهند

مسألة التعليم في البلاد الإسلامية مسألة مستقلة قائمة بذاتها ، لأن الأمة الإسلامية أمة خاصة في طبيعتها ووضعها ، هي أمة ذات مبدأ وعقيدة ورسالة ودعوة ، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ والعقيدة وهذه الرسالة والدعوة ، ويكون أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذه العقيدة وتحمل هذه الرسالة وتؤدي هذه الدعوة . وكل تعليم لا يؤدي هذا الواجب أو يغدر بذمته ويخون في أمانته فليس هو التعليم الإسلامي ، بل هو التعليم الأجنبي ، وليس هو البناء والتعمير ، بل هو الهدم والتخريب . وأولى للبلاد الإسلامية أن تتجرد منه وتحرم من ثمراته المادية ؛ فالأمية خير لها من هذا التعليم الذي يرزؤها في طبيعتها وعقيدتها وروحها ، إذاً فمهمة التعليم في البلاد الإسلامية مهمة عسيرة ليست من السهولة بالمكان الذي يتصوره رجال التعليم في بلادنا ، إنه ليس مجرد تعليم علوم وفنون ولغات وطنية وأجنبية وآداب أهلية وأوربية ، بل هو إنشاء جيل جديد إنشاء فكرياً خلقياً روحياً ممتازاً ، وذلك لا يتم أبداً بترجمة الكتب وجلب الأساتذة من الخارج وإنشاء عدد كبير من الجامعات والكليات وإرسال بعثات من الطلبة إلى أوربا وأمريكا ، إنما يحتاج إلى شيء كبير من النبوغ والابتكار ، وشيء كثير من التأليف والإنتاج، فإن هذا التعليم يطلب منهاجاً دراسياً خاصاً ، لا يوجد الآن كاملا في أي بلد من بلاد الإسلام فضلا عن بلاد الأجانب ، وكلما استعير منهاج من بلاد غير إسلامية أو اختيرت كتب وضعت في بلاد غير مسلمة ولناشئة غير مسلمة كان هذا المنهاج وكانت هذه الكتب قلقة نابية لا تفي بالغرض ولا تساعد في المطلوب ، ويكون الصراع مستمراً بين الفكر الإسلامي والروح الإسلامية وبين العقلية الجديدة والنفسية الجديدة التي تنشأ بتأثير هذه الكتب ومفعول هذا النظام التعليمي ، وهذا الصراع ليس أقل شؤماً لهذه الأمة ، ولا أقل جناية على حياتها وإسلامها من صراع الدين والسياسة والعقل والديانة في أوربا في قرونها الوسطى . وقد تجلى هذا الصراع وعنف واستفحل في جميع الأقطار الإسلامية التي أخذت العلوم الغربية برمتها والكتب المقررة في البلاد الأجنبية

والكتب الخالية من روح الدين على علاتها ، وطبقت نظام أوربا أو بلاد أخرى فى التعليم فى بلادها أو أدخلت عليه شيئا من التعديل ، وقد دفعت لهذا التعليم وما جنت من فوائد مادية قيمة عالية جداً من الأخلاق والروح والعقيدة . وقد اتفقت كلمة العقلاء وأهل التجربة على أن خسارة الأمة والبلاد فى هذا النظام التعليمى وفى هذه المعاهد ودور التعليم الحديث التى نسميها فى بلادنا الهندية (الكليات الإسلامية) ، (والجامعات الإسلامية) كانت أكبر من ربحها ، فقد استنفد دعاة التعليم العصرى الحديث جهودهم وأموال المسلمين فى إنشاء هذه المدارس وإقامتها ، واستخلصوا لها أفلاذ أكباد المسلمين وخيرة شبابهم ، فكان غاية ذلك بعد مدة قليلة فوضى فكرية هائلة واضطراباً وتناقضاً فى الأفكار والآراء ، وشكاً وارتياباً فى الدين ، واستخفافاً بفرائضه وواجباته ، وثورة على الآداب والأخلاق ، وضعفاً وانحطاطاً فى الأخلاق والسيرة ، وتقليداً للأجانب فى القشور والظواهر ، وتبذيراً للأموال إلى غير ذلك مما أصبح به هذا الجيل كلاً على الآباء وعلى الأمة ، وجرثومة الفساد فى جسمها ونقطة الضعف فى كيانها .

يرى المطلعون على حقائق العلوم وفلسفة التعليم أن للعلوم والكتب ضميراً كالكائنات الحية ، وهو باطن هذه العلوم والروح السارية فى الكتب ؛ فالعلوم التى أنشأها الإسلام وصاغها فى قالبه قد سرت فيها روح الإيمان بالله والفضيلة ، والعلوم التى وضعها اليونان أو رتبوها اشتملت على خرافاتهم وعلى روحهم الجاهلية ، وكذلك العلوم التى دونتها أمم أوربا الملحدة والكتب التى ألفها أدباؤها وفلاسفتها قد سرى فيها الإلحاد والجحود والإيمان بالماديات والمحسوسات فقط ، وقلة التقدير لما لا يأتى تحت الحس والوزن والحد والتجربة ، ومن الأخلاق مالا يحصل منه لذة أو نفع محسوس . وسرت هذه الروح فى علومهم وفلسفتهم وأدبهم وشعرهم وقصصهم وتمثيلهم ، فلا يكون من الحكمة التعليمية ، أو من النصح للمسلمين نقل هذه العلوم والكتب المؤلفة فيها إلى النشء المسلم بروحها وضميرها ، بل يجب أن تدون هذه العلوم من جديد تدويناً إسلامياً وتؤلف فيها كتب مبتكرة ، وتشبع بالروح الدينية وتستخرج منها نتائج لا تعارض الدين بل تؤيده وتبعث اليقين والإيمان ، هكذا يجب أن نعمل مع التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ، فلكل منها اتصال بالدين وكل منها مؤثر فى الدين . . . والحاصل أننا فى بلادنا الإسلامية فى حاجة ملحة إلى نظام تعليمى إسلامى فى الروح والوضع والسبك والترتيب ، حتى لا يخلو كتاب من الكتب التى تعلم مبادىء اللغة إلى آخر كتاب يدرس فى العلوم الطبيعية أو الآداب الإنجليزية من روح الدين والإيمان . هذا إذا أردنا أن ينشأ جيل جديد يفكر بالعقل

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

والذى يلى السيرة النبوية فى التأثير والقوة هو تاريخ الخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم : تاريخ إيمانهم ومحنتهم وحسن بلائهم ، وتاريخ جهادهم وفتوحهم وزهدهم واستقامتهم ، وهو تاريخ يملأ القلوب إيماناً وحماسة ، ويبعث على تقليدهم لأنهم — وما كانوا إلا من عامة البشر — إنما جاءوا ثمرة طبيعية مباركة للايمان بالدين واتّباع الرسول ، وصنعهم الإيمان وحده صناعة ممتازة يقرأ الدارس فيها كيف ترتفع الإنسانية فوق المادية والأغراض الدنيا إلى التجرد من الأنانية والتفانى فى الله والتضحية والإيثار والوفاء ، وكيف أدرك تلامذة الوحى من ذلك كله الذروة العالية .

فلنكثر من تدريس كتب التاريخ ، ولنكثر من دراسة الحوادث والسير ؛ فإن للحوادث والسير تأثيراً ليس للمنطق والبرهان والمقالات العلمية .



طريق الاستقلال

« ... فلابد لاستقلال الإسلام ، من زوال هذه الأوهام ، ومن انتشار المعارف التى لا تجتمع مع الذل فى مكان ، ولا تبرح دون تلك الغاية مصاعب وقحم ، ومصائب وغُمَم وليال مظلمة طوال ، ومعارك تشيب لها ذوائب الأطفال . . . »

« شكيب أرسلان »

المسلمون ...

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

من هؤلاء التائهونَ الخابطونَ على التُّخومْ ؟
أغشى خُطَا أبصارِهم رَهَجُ الزَّوابعِ والغُيومْ ..
واللَّيلُ ينفُضُ فوقهمْ مِن يأسِه قَلَقَ النُّجومْ
ويَسُوقُهُمْ زُمَرًا إلى حُفَرٍ مُوَلْوِلَة الرُّجومْ
ألسَّوْطُ يُزْقِل حَوْلَهَا والموتُ أنسُرُه تحومْ
والقيْدُ يَخْصِفُ مِن صُدُورِهِمُ المذَلَّةَ والهمومْ
ويَسومُهُم من عَسْفِه ولظاه أبشعَ ما يسوم
فإذا غفَوْا .. فعلَى مَوَاطِىء كلِّ جلَّاد غشومْ
وإذا صحَوْا .. فعلَى خُطًا لِلذُّل خاشعةِ الرُّسومْ ..

***

مَن هؤلاء الضَّائعونْ ؟ .. أفهؤلاء المسلمونْ ؟ !
أبداً ! ! تكذِّبنى ، وتَرْجُمُنى الحقائقُ والظُّنونْ ..

***

أبداً .. وكيف ؟ وفى يمينِهِمُ كِتابٌ لا يَهُونْ
أبداً .. وكيف ؟ ودُون سَطْوته وتَمْتَحِرُ القرُونْ
ويَبيدُ طغيانُ الْعُتاةِ ، ويَهلِكُ المتجبِّرونْ

ويخرُّ بين يدَيْه مِن وَهَج الضِّياء الفاشِمونْ
الفاسِدونَ ، المُفسِدونَ الظّالمونَ ، المُظلِمونْ
الشاربونَ الدمعَ ثمَّنَ في المَجازِر يصْرخونْ
السائقون الخلقَ كالقطْعان ساجِدةَ العُيونْ
مَبْهُورةً ، مَنْهُورةً بالسَّوْطِ ، تجْهَل ما يكون
بَلْهاء ، روَّعها الصدَى واجْتاح قِيثَتها الجُنونْ
وأحالها عدَماً يكبِّرُ للرَّدَى . . لوْ تسمعونْ !

***

مَن هؤلاء الخانِعونْ ؟ . . أفهؤلاء المسلمون ؟ !
أبداً . . تكذِّبني ، وترْجُمني الحقائق والظنُّون . .

***

أنا منْهُمُ . . لكنَّني نَغَمٌ بِسَمْعِهِمُ شَريدْ
رَبَضَتْ به الأصْفادُ . . بلْ طَحنَتْه غَمْغَمةُ العَبيدْ
وجُؤارُ شرْقٍ مُبْدِئٍ بأنين أُمَّتِه مُعيدْ
أبْكي عليهم . . أمْ عَلَى غلٍّ يكبِّلني شديدْ !
إنّا هجَرنا اللهَ . . . هِجْرَتُنا لِشَيْطانٍ مَرِيدْ
عاتٍ تروِّضُنا حَضا رَتُه لِكلِّ هوًى مُبيدْ
ولكلِّ مَن يُحْيي لنا الإسلامَ في كفَنٍ جَديدْ . .
نسجَتْه أخْيِلةُ العصور السُّودُ مُذْ زمَنٍ بعيدْ
لِتُحيلَ دِينَ « محمَّدٍ » وهْماً على نَعْش مَجيدْ
وإذا الجِنازَة لوْعةٌ حَرَّى مشيِّعُها سَعيدْ

مَنْ هؤلاء الهالكونْ ؟ . . أفهؤلاء المُسْلِمونْ ؟ !
أبداً . . تكذِّبُنى ، وتَرْجُمُنى الحقائقُ والظنونْ . .

***

مَنْ كانَ للإسْلام ، فليَضْرِبْ بِمِعْوَلِهِ الفَسادْ
فَيَصِيحُ باللصِّ العتىِّ : كفاكَ من شِبَعٍ وزادْ
ويَصِيحُ بالفُسَّاق : إيَّاكُمْ وأعراضَ العِبادْ
ويَصِيحُ بالطّاغين : أسرفْتُمْ ، لكل مَدًى نَفادْ
ويَصِيحُ بالْباغين : ويْحكم ، لقد ذَهَب الرُّقادْ
ويَصِيحُ بالغاوينَ : وَيْلَكُمُ ، إذا حان الحصادْ
وطَوَاكُمُ حَدُّ المْناجلِ : بين أذْرُعِهِ الشِّدادْ
ونظرتمُ . . فإذَا الظلَامُ عليكم حَنِقُ السَّوادْ
رِيحٌ مُصَرْصِرَةُ الزئير ، كأُخْتِها فى يَوْمِ « عادْ »
تسقِيكُمُ مِن وَيْلِهـا وخَرابِها حُمَمَ الرَّشادْ . .

***

مَنْ هؤلاءِ الصاغرونْ ؟ . . أفهؤلاء المسلمونْ ؟ !
التَّائبونَ ، العابدونَ ، الراكعونَ ، السَّاجدونْ ! ! !

الله

للأستاذ أحمد الصافى النجفى

بلغتُ ما يصبو إليه الورى ... وغير ذا ما أتمناه
أرضيتُ بالشعر البرايا وما ... أرضاه إن لم يرضه الله
الله أستاذى وكل الذى ... خطّ يَرَاعى فهوَ أملاه
لا مبدع إلا هو لا ناقد ... سواه ، ما يأباه آباه
أخجل من عرض فنونى له ... وإن تكن بعض عطاياه
أبدَلت بالفن خشوعى فإن ... يُقبل فذا ما أتوخّاه
شوهتُ فن الله إذ رُمت أن ... أزيد بالفن مزاياه
أحتقر الناس وإعجابهم ... ومن هُم ؟ لا شىء إلا هو
لولا تجلّيه على خلقه ... لقلت هم والوهم أشباه
الله نور الأرض نور السما ... ما أنا ما العالم ؟ لولا هو
أعمى الورى من لا يرى نوره ... ألم يشاهد ؟ أين عيناه ؟
أعمته عيناه وأغنى على ... عمىً فلم تصدقه رؤياه
تاه من النور وكم معشر ... إن تزد النور لهم تاهوا
كم تكذب العين بما تدعى ... فأوضح العالم أخفاه
أراه فى الكون بعين الحجا ... لا أشرك العين بمرآه
إذا ادّعى عقلك إنكاره ... فأنكر العقل ودعواه
مُعَظّمى كونىَ من فيضه ... مُصغّرى فهمىَ إياه
عجبت من ساعٍ إلى غيرِه ... والكل لفظ هو معناه

تأله البعض شعوراً به ... فصاح فى جبتىَ الله
ولو رآه لهوى مثلما ... موسى هوى من طور سيناه
آمنت بعد الكفر مستغفراً ... عن جهل عقلى وخطاياه
يأخذ مصنوع على صانع ... ما أحقر العقل وأغباه
وعدت إلى الخالق أدعوه أن ... يزيد نورى يوم ألقاه
تمردتْ نفسى على كل ما ... قد خلق الله وسواه
حتى بدت للعين أنواره ... فلم تشوّشها مراياه
كهولتى بالله قد آمنت ... ضل شبابى ودعواه
فإن تجد ذا شيبة جاحداً ... فقل إلى الموت أحلناه
روح المعرى فىّ قد آمنت ... فأبصرتْ فى الموت عيناه
عاشت بروحى روحه ترتقى ... فمذ سمت لاح لها الله
بدأت تلميذاً على عقله ... ثم اعتلى عقلى فأعلاه
أنضجت روح الشعر فى روحه ... فاستيقظت فى العقل رؤياه
واستيقظ العقل بما قد رأى ... واتحد الرائى ومرآه
وضل أتباع المعرىّ إذ ... ظنوه قد ظل على ما هو
خالوه من جمودهم جامداً ... لقد أساءوا لمزاياه
ما هو إلا فكرة تعتلى ... حتى ترى فى الكون أعلاه
أفكارنا أفكار قوم مضوا ... يتصل الأعلى بأدناه
مراحل الفكرْ بهذى الدنا ... مراحل العمر بدنياه
آخرة المرء كدنياه ... ومنتهى الفكر كمبداه
كانت بذوراً وغدتْ دوحة ... تُثمر ما البذر جناياه
ما نحن إلا فكرة لم تَزَلْ ... ترقى إلى ما قدر الله
رسالة الغفران لم تغتفر ... للشعرا كفراً به فاهوا
وجئت فى شعرىَ مستغفراً ... عن المعرى وخطاياه

تحية الشعر

للأستاذ محمود أبو النجاة

طلعتْ على ليلِ الوجودِ ضياءَ   وتضوَّعتْ فى قفرِه فيحاءَ
وتدفقتْ من صخرِه أنهارُها   تروى نفوساً للجهاد ظِماءَ
وتجرَّدت أقلامُها ، وكأنها   بِيضٌ يسيلُ مدادُهنَّ دماءَ
فلها التحيةُ من سوادِ قلوبِنا   ونصوغُ مِن نور العيونِ ثناءَ

***

(المسلمون) صحيفةٌ « قمريَّةٌ »   غراءُ ، تُحيي السمحةَ الغراءَ
قامت على صرح الشريعة تبتنى   أمجادَها وتُعيدُها شمَّاءَ
والمجدُ لا يُعْطَى شراباً سائغاً   إنْ رُمتَ مجداً ، فاسألِ الشهداءَ

***

يا قادةَ الشرق المهيض ، استيقظوا   فالغربُ أعلنها لكم شعواءَ
حرباً تمسُّ الدينَ فى تقديسِه   وتبيد أطفالا لكم ونساءَ
وتزعَّمَتْها « انجلترا » وهى التى   عَقَدتْ لحرب المسلمين لواءَ
بالأمس مَكَّنتِ اليهودَ فأنشأوا   وسطَ المهازلِ دولةً عرجاءَ
وغدتْ «فلسطينُ» الشهيدة موطناً   لهمو ، وأصبح أهلُها غرباءَ
واليومَ فى مصرَ العزيزةِ جرَّدتْ   جيشاً يناجزُ أمةً عزلاءَ !
للشرق داءٌ لا يُرَجَّى برؤُهُ   إلا إذا أخذ « الكتاب » دواءَ

واللهُ — جلّ اللهُ — أخبر أنّ فى آياتِهِ للمؤمنينَ شِـــفاء

* * *

سِرْ يا «سعيدُ» بنور ربك ماضياً إنى عَهِدْتُك «كالشهابِ» مَضَاء
فلقد نشأتَ على مبادىء دعوةٍ بَذَتِ الرجالَ العـاملين بِناء
صَمَدوا لأهوالٍ شدادٍ ، فانثنتْ عنهم ، وزادوا بالخطوبِ نقاء
وتعلموا فنَّ الجهادِ ، ومارســوا صفقاتِهِ بيعاً لهـا وشراء
ربّاهمُ «البنّا الشهيدُ» فأصبحوا مُثُلاً ، وأضحى كلُّهمْ «بناء»



مراكش المسلمة

للأستاذ علال الفاسى

مراكش إحدى البلدان العربية المسلمة العريقة فى مجد العروبة وفضل الإسلام ، لها ماض ملىء بالفخر إذ لعبت فى المغرب نفس الدور الذى لعبته العراق والشام ومصر فى المشرق ، وهى لم تعرف فى تاريخها الطويل فتحاً أجنبياً ولا استعماراً ولو تركيا ، وذلك لما جبل عليه أهلها من حب الاستقلال والذود عن الحياض والتمسك بتقاليد العزة والكرامة ، ولم يكن الفتح العربى لها احتلالا ، وإنما كان كشأنه فى سائر البقاع هداية للناس وتبشيراً بدين الحق وتنويراً للعقول ، ومنذ أن ارتضت الإسلام ديناً وهى تكوّن دولة من أقوى دول العالم الإسلامى . ويكفيها فخراً أنها أوقفت تيار التهجمات الصليبية المتعاقبة على المغرب العربى طيلة القرون السالفة ، وهاجمت وانتصرت مراراً على دول النصرانية المتاخمة التى لم تأل جهداً فى مقاومة المسلمين وتعقبهم حيثما حلوا .

وإن الذى يتتبع تاريخ العلاقات بين مراكش وبين أسبانيا والبرتغال من جهة ، وبين بقية الدول اللاتينية والسكسونية من جهة أخرى لا يشك فى أن هجوم هؤلاء وأولئك على مراكش وتقسيمها إلى عدة مناطق لكل واحد منهم منطقة مخصوصة ، لم يكن بداعى التوسع والاستعمار فقط ، ولا بباعث الرأسمالية والاستغلال فحسب ، ولكنه امتداد للحروب الصليبية العتيقة التى طالما تألبت فيها النصرانية اللاتينية على مراكش المسلمة العربية ؛ فقد أوصت الملكة (إيزابيلا الكاثوليكية) بعد أن طردت المسلمين من الأندلس بطردهم أيضاً من شمال أفريقيا ، ووصيتها محفوظة عند الأسبان يتدارسونها بينهم تدارس الدول الحرة لميثاق حقوق الإنسان ، ولقد صرح غير واحد من ساستهم بأن هذه الوصية يجب أن تنفذ وأن يعمل كل أسبانى على تحقيقها .

وإذا كان التنافس الاستعمارى قد جعل فرنسا تقف دون أسبانيا ودون فتح الشمال الإفريقى برمته ، فإن فرنسا لا تقل تعصباً دينياً عن شقيقتها اللاتينية ، ولم تصدر فى فتحها لتونس والجزائر ومراكش إلا عن نفس الروح التى تملها الوصية الأسبانية .

ولقد كان للكردينال (دولا فيجورى) دور مهم كبير فى تنظيم حملات الاستعمار

والتبشير فى إفريقيا الشمالية ، وهو الذى سجل فى رسالة كتبها لوزير الخارجية الفرنسية ضرورة فتح مراكش لئلا يبقى الطائر (الجزائر) بجناح واحد (تونس) ، مذكراً بما يفرضه الدين المسيحى من ضرورة العمل على تنصير المسلمين وفتح المجال الحيوى للكثلكة ،

وسار الساسة الفرنسيون والأسبان فى كل الشمال الإفريقى على نفس السياسة التبشيرية التى دعا إليها الكاردينال الفرنسى وأوصت بها المملكة الأسبانية ، فكان الإسلام هو العدو الأول الذى تتوجه إليه اعتداءات الفرنسيين والأسبان بكل الوسائل ، وليس أدل على ذلك من السياسة البربرية التى سارت عليها فرنسا فى المغرب العربى ، وأعلنتها رسمياً ونفذتها فى مراكش ؛ تلك السياسة التى تقوم على فكرة فرنسة المغاربة عن طريق تمسيحهم ، وأعظم مظاهرها ما يسمونه (بالظهير البربرى) الذى أدى إلى إقفال المحاكم الشرعية فى سائر القبائل التى يسمونها (بالمناطق البربرية) ، وقد أحلت السلطة الفرنسية محلها مجالس عرفية ؛ قاضى الضبط فيها ضابط نصرانى فرنسى ، هو الذى يتولى للمسلمين البربر كتابة عقود الزواج بالحروف اللاتينية ، ومن أعمالها إقفال كل المدارس والكتاتيب القرآنية فى القرى والبوادى المغربية ، وإحلال بعض المدارس التى لا تعلم إلا اللغة الفرنسية محلها تحت إشراف مديرين غير مسلمين ، وأحياناً من الرهبان الكاثوليكيين .

وليست الأعراف التى أحلوها محل الشرع الإسلامى فى هذه المحاكم قوانين مدنية متحضرة حتى يمكن لمن لا يؤمن بالله أن يعتذر عنها ، ولكنها أعراف جاهلية نبش عنها الفرنسيون وأعطوها حكم القانون، فصار يُرغم عليها البربر المسلمون وهم لها كارهون ، فالمرأة فى هذه الأعراف مهضومة الحق والجانب ، لا ترث بل تورث ، وتباع بيع الأغنام ولا تتمتع بأى حق من الحقوق التى أعطاها الإسلام ، غير أنه يمكنها أن تفارق زوجها متى ردت إليه الصداق الذى قدمه إليها ، ومتى ما اختارت زوجاً غيره دون عدة ولا استبراء ، وقد طبقت أسبانيا هذه السياسة نفسها من غير أن تعلن عنها أو تضع لها تشريعاً رسمياً كما فعلت فرنسا ، وطبقتها فرنسا كذلك فى بعض قبائل سوريا وكذلك انجلترا فى العشائر العراقية وفى قسم من السودان .

فالحملة إذن حملة صليبية فى المشرق والمغرب ، ولكنها أبرز ظهوراً فى مراكش لأنها فى جوار الغرب الذى يرى فى استرجاعها لحظيرة الكنيسة انتقاماً من الإسلام وفوزاً على المسلمين .

ولقد قاوم المراكشيون هذه السياسة التبشيرية منذ إحدى وعشرين سنة ، ولكن مقاومتهم وحدها لا تجدى كثيراً مع الضغط الفرنسى الأسبانى والقساوة اللاتينية ؛ ولذلك فمن الضرورى أن يستمدوا العون والتأييد من إخوانهم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا كان بعض هذا العون قد أخذ يبذل لهم بفضل جهود المكافحين من إخواننا ، فإننا نرجو أن لا يألو العاملون من رجال الكفاح الإسلامى جهداً فى الدعوة لتأييد مراكش ومناصرتها ، حتى تبقى قضيتها معروضة أمام الرأى العام الإسلامى والأجنبى ، فإن فى ذلك تشجيعاً للمراكشيين وتخذيلا للأسبان والفرنسيين .

على أن الحملة الصليبية القائمة اليوم ضد العالم الإسلامى يجب أن تواجه بحملة واحدة تضرب ضربة الرجل الواحد ، ويجب أن يتكتل المكافحون فى المشرق والمغرب ويتقدموا للجهاد المقدس من أجل تحرير بلاد الإسلام ، حتى يعيش الإسلام وينتصر ولو كره الكافرون .

وعسى أن تكون هذه المجلة الغراء (المسلمون) خير رسالة يتبادلها المناضلون فى سبيل الإسلام لتوحيد الكلمة وتنظيم الخطط وتعبئة الجهود . والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

معلومات عن مراكش

- يبلغ عدد سكان مراكش ١٢ مليوناً ومجموع الأجانب فيها ٣٦٠٠٠٠ .
- وتبلغ مساحة الأرض الزراعية ١٥ مليون فدان وتنتج سنوياً ١٠ مليون شجرة زيتون و ٩ مليون شجرة تين و ٨ مليون شجرة لوز و ٨ مليون نخلة — وتغطى الفواكه ١٢٠ ألف فدان من أراضيها — كما تنتج كميات هائلة من الفوسفات (٤ مليون طن) والمنجنيز (٤٥٠ ألف) والبترول (١٢٠٠٠ طن) والكوبلت (٨٨٩ طن أى ½ إنتاج العالم) والفحم والحديد والرصاص والخزف والأنتيمونى والنحاس .
- يبلغ عدد الأطفال المسلمين فى سن التعليم مليونين لا يتلقى التعليم منهم إلا (١٧٠٠٠٠) أما الباقى فلا يوجد مدارس تؤويه .
- مجموع ميزانيتها ٨٢ مليون جنيه يصرف أكثر من نصفها على الجهاز الإدارى الفرنسى .
- يوجد طبيب واحد لكل (١٣٠٠٠٠ مراكشى) وشرطى لكل (٦٠٠) .

فى أفق العالم الإسلامى

سنتناول فى هذا الباب أحداث العالم الإسلامى فى إجمال ، أما تفصيل مشاكله الخاصة فذلك سنفرد له باباً خاصاً فى الأعداد القادمة إن شاء الله .

وسنبدأ بموجز سريع لقضايا الساعة ، ثم نتابع بعد ذلك ما يجد من أمرها ومن أمر غيرها مما يتصل بشئون المسلمين جميعاً ...

وادى النيل :

... وأخيراً أقدمت الحكومة المصرية على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى ١٨٩٩ ، وهى خطوة وإن جاءت متأخرة إلا أنها اتجاه سليم فى علاج قضية وادى النيل على أن يكون معروفا أن هذا الإلغاء بدء واستفتاح ، وأن وراءه تبعات ثقيلة ، وجهاداً مضنياً ، فإن الإنجليز مقبلون على حرب يعدون عدتها ، ولن يخرجهم من مصر والسودان ورقة مكتوبة ، ولا خطبة بليغة ؛ فإنهم أعرف بمصالحهم وأعلم بما وراء الكتب والخطب ، واليوم الذى يغادرون فيه هذه البلاد هو اليوم الذى يشمون فيه رائحة الجد ، ويتحققون من أن بقاءهم لن يفيد شيئاً مما يدبرون ، ولا يعدل الثمن الذى سيدفعون ، فإن القاعدة العسكرية شرطها الأمن والاستقرار ، والسلامة من الرسميين والأهلين على السواء . ولهذا فإن قيمة خطوة الحكومة المصرية بإلغاء المعاهدة محدودة بخطواتها بعد ذلك ، وبالعدة التى أعدتها للأمر وتطوراته . والحوادث التى حدثت فى منطقة القنال أثر الإلغاء ، وتبدت فيها بربرية الإنجليز وإن كانت عند المراقبين للحوادث طبيعية ومتوقعة إلا أنها أزعجتهم وجعلتهم يتظننون فى روح الجد التى ألغيت بها المعاهدة ويخشون الارتجال الذى اتسمت به سياستنا العربية الغامضة . وهم يرون كذلك أن الدور الأول فى مكافحة الإنجليز « المحتلين » يجب أن تضطلع به الحكومة التى كانت خطوتها إعلاناً لثورة اختارت هى وقتها وظروفها ، فهى أقدر من الشعب على الإحاطة بدقائقها ، ويقولون إنه لا يجوز أن يفهم أن دور الشعب اليوم كدوره سنة ١٩١٩ ، فإن الحاكم يومذاك كان من الإنجليز ، أما اليوم فالحاكم هو مجلس من وزراء مصريين يجب أن يتجاوبوا مع الشعب تجاوبا كاملاً ، وأن تقف الأمة كلها صفاً واحداً إزاء كل احتمال ، فإن ذكرت المقاطعة مثلا كان المفهوم الأول منها منع الاستيراد والتصدير لامجرد مقاطعة البضاعة التى دفع التاجر المصرى ثمنها للانجليز وضريبتها للحكومة ، وكانت مهمة الحكومة فى هذه المقاطعة أسبق من مهمة الشعب ... فإذا وجد هذا التجاوب أصبح دور الشعب « الأساسى » القيام بعمل موحد الوجهة مأمون العاقبة . وليس من طبيعة هذا الدور العملى أن تشوشه مظاهرات الصحف واستعراض الطرقات، ولكن طبيعته الأولى يجب أن تكون إيثار الجد والعمل الصامت .

فلسطين :

قد يبدو غريباً أن نتحدث عن مشكلة فلسطين ، وهى لم تعد اليوم من مشاكل الساعة ، ولكن الأمر ليس غريباً على الذين قرأوا تاريخ الإسلام وعرفوا أن جبال فلسطين لم تزل خلال العصور ترتطم بها أمواج الشرق والغرب وتحتدم عندها المعركة بين المسلمين ، فمنذ اخترقت طوائف الفرسان الصليبية القسطنطينية سنة ١٠٩٨ م واستولوا على أنطاكية فى طريقهم إلى فلسطين — وكانت إذ ذاك جزءاً من مصر — وصلوا القدس وأعملوا فى مسلميها ذبحاً وتقتيلا . منذئذ والروح الصليبية تسيطر على دول الغرب وتتخذ أشكالا مختلفة فى محاربة الإسلام والمسلمين ، وفى حجر هذه الصليبية نشأت الصهيونية أو اليهودية العالمية ، وكلاهما بمعنى واحد ، ووجد اليهود من النصارى أولياء ، واجتمعت الكتلتان الشرقية والغربية للمرة الأولى على رأى واحد فى قضية فلسطين ، وتآمر الكل وأحكموا خطتهم والمسلمون نيام لا يدرون ما يراد بهم ، وساستهم منشغلون عن ذلك كله بالعرض الزائل والمتاع الرخيص .

وقد قضى عرب فلسطين أكثر من ثلاثين سنة يعانون وحدهم مخالب هذه المؤامرة النكراء ، وعرفتهم الدنيا حينئذ أبطالا أقضوا مضاجع الإنجليز . ثم تركت انجلترا فلسطين بعد أن أدت دورها الخبيث فى الداخل والخارج ، وأسرفت الدول العربية فى الوعود والعهود ، وكانت المعركة السياسية ـ لا العسكرية ـ هى التى تكشفت عن مهزلة أليمة مخزية .

والذى يعنينا من هذه العجالة أمور ثلاثة : أولها : أن المسئول عن هذه الهزيمة هو الحكومات العربية قبل الشعوب ، لأن هذه الشعوب وهى حديثة عهد باليقظة لم يكن يبلغ بها سوء الظن أن تكذب كل وعود حكوماتها وعهودها . والمتطوعون من هذه الشعوب ـ فى الحدود التى فرضت عليهم ـ كانوا أمثلة رائعة فى الإيمان والثبات والتنافس على الاستشهاد الكريم .

والأمر الثانى : أن المصائب التى جرتها قضية فلسطين يجب ألا يصاب منها المسلمون بجزع وخيبة أمل ، بل عليهم أن يتلمسوا فيها نوراً جديداً يسيرون به سيراً جديداً ... فإن الفضائح التى كانت مستورة أقدم من قضية فلسطين ، وحسرت فلسطين النقاب عنها ! ! فلماذا الجزع وخيبة الأمل ؟ لماذا لا تكون معرفتنا لحقيقة أمراضنا أول رحمة الله بنا ؟ . ثم إن دم الشهداء الذى سال على أرض فلسطين لم يذهب سدى ، لا عند الله ولا عند المسلمين : هو عند الله قربة نرجو بها حلمه ورحمته ، وهو عند الناس تذكير بفريضة الجهاد فى سبيل الله وجمع لشمل المسلمين من جديد على معنى التضحية فى سبيل قبلة المسلمين الأولى . والمتطوعون الذين عادوا من المعركة سالمين لا يزالون يذكرون إخوانهم الشهداء الذين دفنوهم بأيديهم ، ويستشعرون الرباط القدسى القوى الذى يربطهم بالمسجد الأقصى المبارك .

والأمر الثالث والأخير : هو أن يتنبه المسلمون إلى الخطر الذى يهددهم من قيام دولة اليهود ، وأن فلسطين ليست إلا مرتكزاً لأحلام واسعة لا يزال يتراءى لهم فيها ديار بنى قينقاع وبنى النضير وخيبر ، وأن ملكهم كما يزعمون من دجلة إلى النيل ، وأننا مقبلون — غداً أو بعد غد — على حرب مع اليهود ، ما من ذلك مفر ، وهم يعدون عدتها ، فماذا نعد نحن ؟ ! . يجب أن يتربى المسلمون على معنى الكفاح ، وأن يذكروا فلسطين مع سائر قضاياهم كل صباح ومساء ، وأن يفهموها حرباً معلنة على الإسلام والمسلمين . قال الله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

كشمير :

ولدت قضية كشمير مع مولد الباكستان ولعله أريد بها أن تظل مشغلة تهدد الدولة الناشئة . وتتلخص أهمية كشمير بالنسبة للباكستان فى موقعها الاستراتيجى ، فهى تتاخم روسيا والصين فى الشمال والشرق ، وتتاخم أفغانستان والباكستان فى الغرب ، والهند فى الجنوب ، وتنبع منها الأنهار الرئيسية التى تعتمد عليها باكستان الغربية ، ونسبة المسلمين فيها أكثر من ٨٠ ٪ : أما أهمية باكستان بالنسبة لكشمير فهى أنها سوق حاصلاتها ، وموانيها هى الموانى التى تصدر منها كشمير بضائعها .

ولا تزال قضية كشمير معلقة فى مجلس الأمن ، ولا تزال الهند تتهرب من استفتاء حر يقرر شعبها فيه مصيره . وفشلت قرارات مجلس الأمن المتعددة ثم التحكيم فى إقناع الهند بفكرة سحب قواتها وقوات الباكستان لتشرف هيئة الأمم على الاستفتاء رغم ما أبدته الباكستان من استعداد كامل .

ويظهر أن الهند تخشى عاقبة الاستفتاء ولا تراه من صالحها وتصرّ على أن تنهج سياسة الأمر الواقع ، وهو ما نراه خطراً عليها وعلى الباكستان على السواء .

ونحن وإن كنا لا نرجو خيراً حقيقياً على يد مجلس الأمن وهيئة الأمم ، إلا أننا نعتب على حكوماتنا العربية والإسلامية موقفها المائع فى هذه القضية مع وضوح وجه الحق فيها ، ومع أن الباكستان لم تدخر وسعاً فى كل قضية عربية أو إسلامية، وقد كان أولى بها أن ترد الجميل وتشد أزر الشقيقة الكبيرة فى قضيتها الأولى ، سيما وأنها بهذا الموقف الغامض لن ترضى أحداً .

إيران :

بهرت الدنيا بثورة إيران المفاجئة ، وكتب الله لشعب إيران أن يكون شعلة من شعل الأمل فى هذه الفترة من تاريخ المسلمين . وشعب إيران ككل الشعوب الإسلامية ، ينطوى على حياة مذخورة وإن خفى عن الناس وجهها ، وقد ظل الإيرانيون صابرين على الشركة الإنجليزية الإيرانية للبترول التى كانت مهمتها من أول يوم استمراراً للامتيازات البغيضة التى ثاروا عليها سنة ١٩٢٠ وأعلن رضا شاه بهلوى إلغاءها سنة ١٩٢٧

وظل الأمر كذلك حتى قتل جندى « فدائيان إسلام » رازماراه ، وتقدم آية الله السيد أبو القاسم الكاشانى والسيد نواب صفوى ليقودا الشعب فى مظاهرة تنادى بتأميم البترول ، ثم ألف الدكتور ، محمد مصدق الوزارة ؛ وهو المؤمن بفكرة التأميم ، فاتحدت بذلك كلمة إيران وكان للشعب ما أراد ولم تغن محكمة العدل ولا وسيط أمريكا ولا هيئة الأمم عن انجلترا شيئاً ، وقد كان الدكتور مصدق والدكتور حسين فاطمى نائبه قويين فى عرض قضيتهما فى أمريكا ، والمأمول أن تثبت حكومة إيران على سياستها وألا يكون صحيحاً ما يشاع من احتمال تغير فيها ، وأن يذكر إخواننا فى إيران أن ضريبة الاستقلال صعبة وأن الصبر على تبعاتها — مهما كانت قاسية — هو طريق الشعوب الطامحة ، وربنا يقول : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .